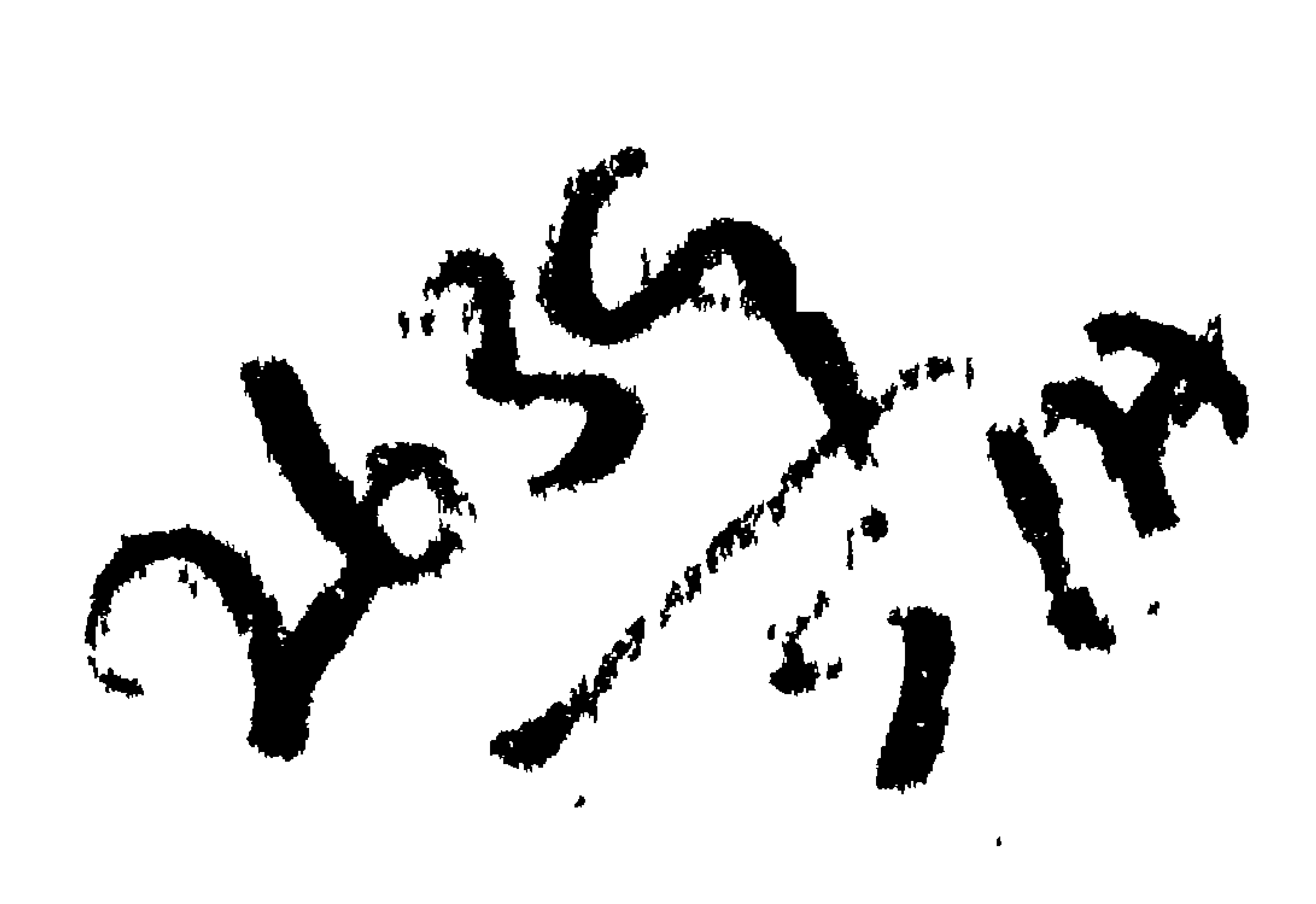


شوقي

قصة مصرية

محمد عوض محمد

سِنُوحي

اقرأ ١٢

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وانطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



ســـــنوحى

— ١ —

أنا سنوحى بن سنوحى ، أمير الدولة ، ووزير الملك ، ومدير ممتلكات العرش فى آسيا : إلى غير هذا من الألقاب الباهرة ، التى لا أريد أن أثبتها كلها ، لكيلا أضيع الوقت والمداد فيما لا غناء فيه .

إننى لم أكن – فى أى وقت من حياتى – مغرماً بالألقاب الفارغة ؛ بتلك الألفاظ الجوفاء ، التى ترن كالطبل ، فإذا فتشتها لم تصب فيها شيئاً . وعندى أن لقباً صغيراً ، يجر وراءه ضيعة صغيرة بمزارعها وحدائقها ، وماشيتها ودواجنها ، وغابها وصيدها وبركتها وأسماكها ، أفضل وأجدى من ألقاب فخمة ضخمة ، توقع بصاحبها غرماً ، وتحمله همًّا ، ويضيع وسطها اسمه الصحيح ، ووظيفته فى الدولة .

أنا إذن – سنوحى ! وحسبى أن يذكرنى الناس بهذا الاسم ، دون أن يضيفوا إليه شيئاً آخر .

والذى أخشاه أن كثيرين سيضيفون إليـه — إذا حلا بعضهم إلى بعض — ألقاباً وسِبابا ، وعَبَثاً مستطابا ، وهذا أمر لا مناص منه . وإلا فما فائدتنـا — نحن الطبقة الحاكمة — إذا لم تجد الطبقات المحكومة فينا مكاناً للتسلية والدعابة ؟

وبعد : فإنى اليوم أتفيأ ظلال الوطن العزيز ، وقد ألقيت العصا واستقرت بى النوى ، بعد أن طوفت فى الآفاق ، وسعيت وراء الشمس ، أتبعها إلى مغربها تارة ، وإلى مشرقها تارة أخرى . وقد أتاح لى كرم الإله المحبوب سينوسرت أن أرجع إلى الوطن . وأن أنزل فى رحاب قصره العظيم ، ورأى جلالته أن يوفر لى أسباب الرخاء ، فخصص لى جراية قدرها ألف رغيف ، ومائة جرة من الجعة ، ومائة حزمة من الكراث ، ذى اللحية الكثة ، وثورٌ أكحل الطرف أسيل الخد . . .

وأريد — وقد أتيح لى هذا الرخاء والهدوء — أن أجلس القرفصاء كما يجلس كتابنا ، وأخط على هذه الصحائف سيرة حياتى وأعمالى ، وما قد شهدت أو سمعت ، مما يستحق أن يكتب ويسطر .

ومن الناس من يأبى فضوله إلا أن يسأل : « لماذا تكتب

وتخط سيرتك ، وقد أراحنا الله منك ومن سيرتك ؟ » والرد على هذا السؤال الوجيه أنى لا أريد أن يستريح الناس من سيرتى ، بل أريد أن تصاحبهم هذه السيرة أينما ذهبوا ، وأن تطالعهم وجه النهار إذا أصبحوا ، وتواجههم وقت المساء إذا أمسَوْا . فإن فينا نحن معشر الكتاب روحا لا يهدأ ، أو ينغص على تلك الطائفة حياتها فى غدوها ورواحها ، ويقظتها ورقادها .

وفوق هذا ، فإنى حين أكتب هذا الحديث لا أفكر فى أبناء عصرى وحدهم ؛ بل يتجاوزهم بصرى إلى الأجيال التى لم تولد . وإلى الأحفاد الذين أرجو أن يكونوا حريصين على معرفة سِيَرِ أجدادهم ، لكى يقتفوا آثارهم حيناً ، ولكى يخالفوا تلك الآثار حيناً آخر .

وفى وسعنا — نحن سكان مصر — أن نخاطب الأجيال البعيدة ، بفضل هذا الاختراع الطريف ، وهو الكتابة ، وقد امتزنا بها على سائر الشعوب البربرية التى تحيط بنا ، واستطعنا بفضلها أن نسجل أعمالنا وأخبارنا ، وما قد يخطر لنا من فكر ، وما يعرض لنا من رأى . . .

وليس هذا كله مما يستحق التسجيل والإثبات ؛ بل الكثير

منه خليق بأن يُمحى ، و بأن يستر بحيث لا تقع عليه العيون . .
ولقد طالما أتعب كتابنا أنفسهم . فى تسجيل الآراء التافهة ، والأفكار الفجة . ثم بالغوا فى تحسين الخط ، وتزويق السطور و إبداع النقوش . فإذا تفاهة تلك الآراء تتغلب على كل نقش وتزويق ، و إذا الأفكار الفاترة ، لا يجدى معها تجويد الخط ولا إبداع النقش .

ولـكنى يخيل لى أن الزمان كفيل بابقاء الصالح ، واستئصال النافه ، ومع هذا فإنى يحق لى أن أتساءل : لماذا ستر عن أحفادنا تفاهة أجدادهم ، ولماذا نخدعهم عن حقيقتنا . ولهم الحق كل الحق أن يعرفوا أن السخف ليس بالشىء المقصور على عصر من العصور ، وأن للسلف الصالح منه نصيباً ليس بالضئيل .

والآن لا بد لى أن أبادر بسرد هذا الحديث ، الذى أقص فيه قصة العصر الذى عشت فيه . وأريد أن أؤكد لمن يطلع على هذه الصفحات أنى سأبذل جهداً عنيفاً كيلا أحيد عن الحقيقة ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، إن أصحابى قد أفرطوا فى اتهامى بأن الصدق ليس من أخص صفاتى . يقولون هذا مازحين تارة ، ومازجين الهزل بالجد تارة أخرى . حتى اشتهرت بين الناس بأنى

أوثر القصة المتقنة على الحقيقة الناصعة . ولا شك أن فى عشرة الأصدقاء مجالا للخيال وللدعابة ، تكون الحقيقة فيه أمراً غير مستساغ ، أما اليوم فإنى أقص قصة عصر ، وأسطر حوادث عهد ، ولا بد لى أن أحرص على ألا يزل القلم أو يجمح الخيال كثيرا .

* * *

أبدأ حديثى بذكر والدى سنوحى الكبير ، أرجو أن ترعاه الآلهة برحمتها ، وتشمله بعنايتها ، وعسى أن تكون قد تجاوزت عن زلاته برغم كثرتها وضخامتها ؛ لأنى أعتمد عليه — وهو اليوم يجرى مع الشمس فى السماء — أن يكون واسطة لى عندها ، أبتغى به الوسيلة لديها ، ومع ذلك فقد تكرم الإله المحبوب سينوسرت فغفر لى ذنوبى كلها : ما تقدم منها وما تأخر، وما ظهر منها وما بطن. ولهذا فإنى إلى حد بعيد مستريح الخاطر ، هادىء البال .

كان سنوحى الكبير من رجال طيبة الكرام ، ومن نبلائها العظام ؛ ولكنه كان يمشى فى منا كبها ، لا حول له ولا نفوذ ، بعد أن جردت الأسرة من ضياعها ، ولم يُترك لها من مصادر

الرزق سوى ما تسد به الرمق . ولو أن رمق أسرة سنوحى من الصخامة ، بحيث يحتاج سده إلى مقدار غير قليل من الطعام والشراب . ومهما يكن من الأمر ، فلقد كان سنوحى الأكبر ساخطاً أشد السخط على الفوضى السائدة فى عصره ، وهى التى أنزلته من قمة اليسار إلى سفحه . وأرغمته على أن يلزم التقتير والتدبير، وهو الذى نشأ وسط النعيم الكثير .

وفى مذكراته التى أوصانى بحفظها يقول : « إن شر الدواب فى هذا العالم النبيلُ الشريف ، الذى أخنى الدهر عليه ، وسلبه أسباب نعمته ، وهى الدعائم التى بنى عليها نبله وشرفه . هذه هى الحقيقة حلوة كانت أو مرة ... فلا تحسبن يا سنوحى الصغير أن النبل والشرف خلق يورث ، أو طبع يمتاز به أناس على أناس . ولا هو دم زكى يجرى فى عروق دون عروق ؛ بل الشرف فى كل عصر وفى كل بلد يتألف من أرض ومن طين ، ومن بقر وغنم وحمير ، وما يتبع ذلك من مواد وغلات ، و بيوت ومنشآت . ولقد نظرت عندما عمت الفوضى ، واختل كل شىء فى القطر ، إلى من حولى ؛ وجعلت أزن رجال عصرى ، فوجدتهم خفافا ضعافا ؛ صغار الأحلام لا يستطيعون النهوض

بعبء ، ولا إصابة هدف بعيد . آمالهم محدودة ، وشوطهم قصير وإدراكهم لايتجاوز اليوم الذى يعيشون فيه ، و بصرهم لا ينفذ إلى ما وراء البقعة التى يحيون فيها .

« ثم تأملت فيهم وأطلت التأمل . فلم أجد بينهم سوى رجل واحد ، طويل الباع ، بعيد الهمة ، جرىء لا يعرف الهيبة ولا التردد . أعجبنى منه أنه يسعى إلى غرضه فى وضح النهار، ولا يحاول أن يستر الغرض الذى يرومه . لأنه قوى ، ولأنه يجرى على سنة العدل . و بغيته الأولى أن يرى بلاده يسودها الرضى والرخاء . »

هذا ما خطته يد الوالد العزيز . وأنا فى غنى عن أن أذكر للقارىء أن هذا الرجل العظيم ، الذى يسبّح بحمده هو أمنمحت الأول . وسأتحدث عنه بعد قليل بما فيه الشفاء والغناء . ولـكننى أسك كثيراً فى أن سنوحى الأكبر — عند ما التف هو وأقرانه حول الأمير الناشىء — كان يعرف فيه كل هذا الخلق المنين والمزايا المدهشة . بل إن التفاوه حول الأمير كان لا يخلو من شبهة المقامرة . فلقد كانت المقامرة من صميم طبع أبى . وكم من مرة سمعته يخاطبنى ، وقد أسند ظهره إلى جميزة ضخمة فيقول : « قامر

يا سنوحى الصغير قامر ! من لم يقامر فى الحياة اضطر لأن يقنع بالقشور دون اللباب ، وبالورق دون الثمر ، و بالأكواخ دون القصور . أنظر إلىّ كيف قامرت بكل شىء حينما انبعث «أمينى» ونصرته وأيدته ، فلما فاز واستقام له الأمر عمرنى بهذه الخيرات التى ترتع اليوم فى ظلها » .

كان أبى لا يدعو الملك المحبوب إلا باقب المودة « أمينى » ولا شك فى أنه قد جنى خيراً عظيما من تأييده للأمير . ولكنه ينسى ، حين يقص على هذه القصة المرة بعد المرة ، أنه فى حقيقة الأمر لم يقامر بالشىء الكثير ؛ كان أمامه ربح عظيم ذات اليمين ، وخسارة تافهة ذات الشمال . فلما رجحت كفة الأمير ، وارتفعت بذلك منزلة سنوحى الكبير ، وَقَرَّ فى نفسه أنّ هذا الفوز مرجعه إلى صدق فراسته ، وسداد رأيه ، ونفاذ بصره ، وصفاء بصيرته . وليس ببعيد أن يكون أبى على شىء من الصواب .

كانت المقامرة فى عرف والدى عبارة عن لعبة سياسية يلعبها من يطمع فى الرقى والتقدم والضياع والماشية . وهى لعبة لا تجوز فى كل عصر وفى كل عهد . ولكن لا شك فى أن عصر أبى

كان من أصلح العصور لممارستها . وتشتمل هذه اللعبة على أن يزن المرء ، بإمعان شديد ، وتدبير حازم ، وتقدير لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، و بميزان دقيق إلى أبعد حدود الدقة ، جميع رجال العصر الطامعين فى السيادة العليا ؛ وذلك فى عهود الانقسام واضطراب الأمور . يزن المقامرُ إذن كل مرشح ، و يقدر احتمال فوزه أدق التقدير . حتى إذا وضح له الأمر ، وانجلت سحب الشك ، وخيل له أن زعيما من الزعماء سيكتب له الفوز لا محالة ، بادر بالانضواء تحت لوائه ، والالتصاق به والتعصب له ، و بذل كل مجهود لنصرته وتأييده .

وفى زعم أبى أن المقامر البارع فى هذا الميدان لا يمكن أن يخسر . وقد نظر إلىّ مرة نظرة طويلة عميقة ، وهو مستند إلى نفس شجرة الجميز . وقال : « إنى لأشك يا سنوحى فى أن مثلك يحسن المقامرة ، إن الذكاء لا ينقصك . فقد ضمنت منه نصيباً وافراً يوم تقرر أن تكون ولدى . فأنت ذكى القلب ، سريع الفهم . ليس فى هذا شك . ولكنى أخشى أنك ممن تحركهم العاطفة و يميلون مع الهوى . فإذا عرض لك أمر ، تريد أن تقطع فيه برأى ، لم تترك عقلك وحده يزن كل اعتبار ، ويقدر كل

احتمال . بل أشركت معه ميولك ونزعات قلبك ، فالتبس الأمر عليك وضللت السبيل .

« ومن حسن حظك أنى ضمنت لك مقاماً كريماً ومركزاً ممتازاً ، بخدماتى الجليلة لأمينى وسيغفر لك كثيراً من أعمال الطيش والرعونة ، ولكنى ما زلت أرجو أنك لن تفعل ما يتطلب العفو والمغفرة . »

أظن القارىء قد أخذ يدرك أننى لم أكن شديد الاقتناع بآراء والدى ، مع أنى كنت أصغى إليه باهتمام وتلهف ، لأنى كنت أحبه أشد الحب وأحب الإنصات لحديثه ، ولكن قلبى كان يبتسم من حكمته العجيبة ، وآرائه الطريفة ، وأكبر ظنى أنه هو أيضاً لم يكن يلقى بتلك الآراء عن اقتناع تام . بل عن اقتناع متوسط يخالطه شىء من الشك .

ومع ذلك فإن نبوءته العجيبة بأنى سأغلب الهوى على العقل ، وأخلط التفكير بالعاطفة ، قد تحققت وياللأسف فيما بعد ، وسببت لى هما غير قليل .

ولا بد لى قبل أن أختم هذا الحديث عن والدى العزيز ، أن أذكر للقارئ أنه لم يلبث أن استرد ضياعه جميعاً ، وتولى إدارة

المقاطعة الجنوبيّة ، وأراد منه الملك أمينى أن يصاحبه إلى عاصمته الجديدة فى الشمال ؛ ولكنه آثر أن يظل فى الجنوب ، واعتذر إلى الملك الإله ، بأن جو الشمال يؤثر فى مفاصله ، وفى فقرات عنقه ، وأن ليس له عنق سواه ، وأن أمه العجوز (وكانت جدتى لا تزال على قيد الحياة) تريد منه أن يظل بجانبها لكى تحس قربه فى اللحظات الأخيرة من عمرها المديد .

وقال سنوحى الكبير فى مذكراته عن هذا الموضوع : « لم أتردد فى أن أعتذر إلى أمينى — فى لباقة وكياسة — عن تخلفى فى الجنوب ، بعد أن انتقل القصر والحاشية إلى الشمال . وبرغم ما سمعته عن العاصمة الجديدة ، وما فيها من روعة البناء وجمال المتنزهات ، وأسباب اللهو والترف ، فإنى ظللت فى مقاطعتى الجنوبية ، أديرها بحزم يمازجه اللين ، وبعدل تشوبه الرحمة . وطالما زارنى الملك الإله أو نجله « سيسو » ، وحاشيتهما ، فى أثناء حملاتهما على « واوات » . أو عودتهما منها . فنعمت بقربهما فترات متقطعة من الزمن ، دون أن أقترب من العاصمة والقصر . وهكذا ظللت إلى آخر لحظة صديقاً مخلصاً وفياً للعرش ، مبتعداً عن ذلك المحتشد العظيم الذى تدب فيه عقارب الغيرة

والحسد ، وتغشاه سحب النميمة والدسيسة » .

إذن ظل أبى فى الجنوب ، حيث قضى البقية الباقية من عمره ناعماً بما كانت تصبو إليه نفسه من الهدوء . ما بين أسرته وعشيرته . ولكنه اختارنى من بين سائر إخوتى ، لكى ألتحق بحاشية الملك الإله الطيب « أمينى » ، ولكى أشق طريقى فى الحياة . فقد كان يزعم أنه يتوسم فىّ استعداداً للمجد ، وللمناصب العالية ، ولم أكن أنا أحس فى نفسى شيئاً من هذا . وعلى كل حال لقد شاءت المقادير أن يُقذَف بى فى حومة هذا الميدان العظيم ، وأنا فتى غر لم أكد أتجاوز خمسة وعشرين ربيعاً ، جاهل ، برغم نصائح والدى — أو بسبب هذه النصائح — بتلك التيارات العجيبة التى تضطرب بها الحياة عامة وحياة القصور خاصة .

وهكذا رست بى السفينة فى مستهل أشهر الحصاد ، فى العام العشرين من حكم الإله الطيب أمنمحت باعث مصر وموحدها ، ومؤسس نهضتها الجديدة . أقول رست بى سفينتى على الشاطىء أمام العاصمة الجديدة إثتْوى : قاهرة القطرين ، حيث لم ألبث فى ذلك العام أن ألحقت بحاشية الأمير « آنى » ؛ ثم نقلت بعد زمن وجيز إلى حاشية الابن الأكبر سينو ولى العهد .

– ٢ –

لقد زعم والدى العزيز أن الملك المحبوب أمينى تردد قبل أن يقرر تغيير حاضرة ملكه . فإن طيبة هى بلدته التى أنشأته وغذته ، وفيها قومه وعشيرته الأقربون ، ومنها انتشر سلطانه ، وحلق نجمه ؛ فهل ينتقل عنها إلى أرض لم ينشأ فيها ، بين قوم امتزج حبهم له بالرهبة والخوف من سلطانه ؟

على أن هذا التردد لم يلبث أن زال . فقد كان من البديهى أن الذى يحكم مصر يجب أن يقيم فى قلب الوادى ؛ فى مصر الوسطى . وقد أصبح الجنوب آمناً هادئاً ، يدير مقاطعاته أمناء مخلصون ، ورجال لا يتطرق إليهم الشك والأخطار التى تتهدد البلاد من آسيا وليبيا أجل وأعظم من خطر الواوات على الحدود الجنوبية ، وللملك فى إخلاص سكان الجنوب ثقة لا تتزعزع . أما سكان الشمال فربما كانوا بعد فى حاجة لأن يشعرهم قربه ، وأن يُشْرِبَهم حبه . ولذلك بادر إلي مصاهرتهم والتودد إليهم . واتخذ منهم وزراء وحجابا .

ثم أنشأ حاضرة ملكه الجديدة فى الشمال ، وسماها ، « قاهرة

القطرين » ، ولست فى حاجة لأن أذكر القارىء بأنها سميت « قاهرة القطرين » إبقاء على تلك الخرافة القديمة التى تقسم القطر إلى صعيد ودلتا . وقد مضت القرون منذ كان هذا الانقسام حقيقة ماثلة ، وكان القطر يتألف من مملكتين : واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب . وبرغم زوال ذلك العهد واتحاد القطر كله ، لا نزال نبقى على هذه الخرافة ، ونحتفظ بشارات المملكتين ، و بتاجي المملكتين ، لكى نتيح فرصة للملوك بأن يلبسوا تاج الشمال تارة ، وتاج الجنوب تارة أخرى . وأحياناً يحاول الواحد منهم أن يلبس شيئاً عجيباً يمثل مزيجاً من التاجين .

كذلك تتيح هذه الحالة فرصة ثمينة للشعراء أن ينشدوا بين أيدى الملوك قصائدهم مشيرين إلى التاجين والعرشين :

يا جامع العرشين فى واحد   ولابس التاجين فى المحفل !

ومع أن لبس التاجين فى وقت واحد أمر لا يَحتمله الرأس عادة . فإن من الممكن أن نستثنى رأس أمنمحت الأول . فقد كان رأساً نخماً ضخماً . قائماً على عنق متين ، فوق جسد جبار .

ولأعد إلى ذكر عاصمة « القطرين » . فأقول إنه لا بد لى

من الاعتراف بأنى قد بهرنى تنسيقها ، وسحرتنى روعة منشآتها . التى جمعت بين جمال الصناعة ، ومتانة البناء . ومن عادة أمنمحت أن يفخر بأنه قد بنى قصوراً تقارع الدهر وأحداثه . وهذا الفخر وإن لم يكن دقيقاً كل الدقة . فإن من السهل أن نغفر للملك الذى من صنعه القصر العظيم « ذو البابين » ما شاء من الإسراف فى العجب والافتخار .

سمى القصر بذى « البابين » . لأن له بابين متجاورين أحدهما للدخول والآخر للخروج . وكلاهما آية فى جمال التنسيق ، وروعة البناء . ولقد ترددت على القصر كأنى أحد سكانه ، بضعة أعوام، فألفت منظره ومنظر حجراته وأعمدته وحدائقه وأفنيته ، ولكن منظر « البابين » لم يفقد روعته عندى على مضى السنين . وحينما حكمت على ظروف الحياة بالاغتراب ، وقضيت السنين الطوال فى أرض « الرطين » كان الشوق يمثل لعينى صوراً من الوطن ، أتأملها وأنا بين الحلم واليقظة . فكان أكثر هذه الصور تردداً أمام عينى صورة البابين.والتماثيل المحيطة بهما .

أما القصر الذى بناه أمنمحت لكى يقارع به الدهر ، فهو عبارة عن بناء عظيم وجهه إلى الغرب ، وظهره على النيل إلى

الشرق ، بينه و بين النيل مسافة مائتى ذراع ، قد انبسط فيها النبت ، وحلق فيها الدوح ، وهكذا كان للقصر حديقتان ، واحدة للأمام من الناحية الغربية ، حيث البابان العظيمان ، والأخرى من خلف ، بين القصر والنيل . ومن الممكن بالطبع أن يدخل المرء القصر من ناحيــة النيل بواسطة أبواب خلفية ، ولكن هذا الحق كان مقصوراً على الأسرة الملكية ، وعدد قليل من المقربين من الملك وأهله ، أو وزير الدولة الذى يقوم على خدمة الحريم .

أما جميع الناس ، ورجال القصر أنفسهم ، بل وجلالة الملك نفسه إذا خرج لشأن من شئون الدولة ، فإنه يخرج من « البابين » من الناحية الغربية . فى موكب عظيم من الجند والحشم .

يشتمل القصر الملكى على ثلاثة أجزاء : قلب وجناحين، كأنه أنشىء فى صورة النسر الذى بسط جناحيه إلى أقصى امتدادهما . فأما القلب فهو الديوان الملكى ، تدنو إليه وسط أساطين وعمد عالية تمثل صورة النخيل ، وقد نحتت من الحجر الأحمر الصقيل . وفى نهايتها تصعد الدرج إلى ردهة القصر حيث الحرس قيام بالليل والنهار ، وعن اليمين والشمال حجرات جلس فيها رجال الديوان

يتلقون الرسائل ويدبرون شئون المملكة .

وفى صدر الردهة حجرة عظيمة ، قد زينت بالذهب ، ونقشت جدرانها بالميناء . وهنا يجد المرء حجّاب الملك ورجال حاشيته المقربين . ومن ورائها حجرة العرش ، وهى من الروعة والجمال بحيث يعجز عنها الوصف . ويتوسطها العرش الملكى . حيث يجلس الإله المحبوب فى الصباح الباكر ، وفى المساء ، يدير الملك ، ويملى الرسائل ، ويوجه الرسل ، ويستقبل الأمراء والأشراف ، وحكام المقاطعات ، ويزودهم بأوامره ، وينفث فيهم من روحه ، ويسأل كلا منهم عن شئون رعيته ، وهل أقام فيها العدل ، ورفع عنها الجور ، ووفر لها القوت . وهل ينفذ ما يأمر به الملك ، من رفع الضرائب أو تخفيفها ، أم يجمعها ويودعها فى خزائنه الخاصة .

لقد كان امنمحت يسأل كل حاكم عن عمله ، وهو على علم تام بالذى يسأل فيه ، فلا يزال يجادل الوالى ويستجوبه حتى يوشك أن يدركه الإغماء ، ولا يخرج المسكين من بين يديه إلا وقد نقص وزنه عدة أرطال . .

وإلى جانب الملك وزيره الأول « هامان » وساعده الأيمن ،

ولكنه كان يقف صامتاً مطرقاً ، حتى يسأله الملك عن أمر فيرد بأدق وأبلغ ما يمكن أن يرد به .

هذه الحجرة التى لا تزيد على بضع عشرة ذراعاً فى الطول والعرض ، هى قلب الدولة النابض ، الذى يبعث القوة والحياة فى أركانها وأرجائها . وفى طرفيها ںابان عن اليمين وعن الشمال يفضيان إلى جناحى القصر ، حيث تقيم الملكة والأنجال والجوارى وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وما يلحق بهم من خدم وأتباع وجوار وعبيد .

ذلك هو القصر ذو البابين ، الذى طبق صيته الآفاق ، وهو بمثابة الواسطة الكبرى من العقد الذى انتثرت حباته ذات اليمين وذات الشمال من قصور صغيرة وكبيرة ، مربعة ومستطيلة ومستديرة . بعضها قريب من القصر الملكى ، والبعض أقل قرباً منه . ويسكنها جميعاً رجال الدولة ، وأسرهم العديدة ، باركت الآلهة فيهم وسددت خطاهم .

والآن أرانى قد وصلت إلى ذلك المكان من قصتى الذى لا بد لى أن أتحدث فيه عن « أمينى » العظيم نفسه . والكلام عن أمينى ليس بالشىء السهل ، فقد امتزجت الحقيقة فى أخباره

بالخيال ، والإسراف بالاعتدال ، وعلى قرب عهدنا به قد أحيط اسمه بألوان من الخرافات والمعجزات ، حتى ليوشك الخبير أن يضل وهو يبحث عن التبر الصريح وسط أكداس من التراب . ومن عادة النفس أن تعشق الإسراف وتهواه ، لأن الحقيقة المجردة لا تشفي الغليل ، ولا تروى الظمأ . وأكبر ظنى أن الملك نفسه كان يشجع الناس على أن ترى فيه كائناً فوق كل كائن ، وأن تنسب إليه المعجزات التى تحير الألباب . وكان غرامه بالمدح والتمجيد يغريه بأن يغض النظر عن الغلو الشنيع الذى امتلأت به قصائد الشعراء . وتتداول العامة تلك المنظومات البديعة ، فيخيل إلى عقولهم الساذجة أن ما فيها هو الحق الصريح الذى لا يخالطه مين ولا غلو .

ومع ذلك فليس من الصعب لمن يفند الأقوال أن يستبعد كثيراً من هذا الإسراف . فلقد طال مدح الشعراء للملك بأنه يعلم الغيب ، ويعرف المستقبل ، حتى كاد هذا الأمر أن يكون من الأمور الثابتة التى لا تقبل الجدل . وفى وسط هذا الضلال المنتشر ، ما على المرء إلا أن يذكر أن الملك لو كان يعلم الغيب لما داهمه المتآمرون ، وهو راقد فى قصره ، وليس حوله من

الأتباع إلا القليل ، ولو كان « أمينى » يعلم الغيب لما أسرف فى إساءة الظن بكثير من ولاته المخلصين الذين لم يقترفوا إثماً ، ولم تخطر الخيانة فى فؤادهم .

وبعد . فإن « امنمحت » بعد أن تجرده من كل غلو وإسراف ، وتنتزع سيرته من بين الخرافات والأقاصيص ، يظل بعد هذا كله عظيماً لا يدانيه فى عظمته أحد ، صانع للمعجزات ، وإن لم تكن من تلك المعجزات السخيفة التى يلهج بها الشعراء . وهل أبلغ فى العظمة من أن ينشأ إنسان وسط الفوضى ، التى تشتمل القطر من أطرافه . وقد اغتالت أرض الوطن غول الفتنة من الداخل ، وغول العدوان من الخارج ، والولاة جميعاً فى تطاحن وتشاحن ، يعتدى بعضهم على بعض ، ويجور الجار على الجار ، وقد تقهقر الحق فى كل مكان أمام القوة الغاشمة ، وتمزقت البلاد أسوأ تمزيق .

وفى وسط هذه الكوارث ينهض شاب يوشك ألا يعرفه خارج بلدته أحد ، فيجمع حوله عصابة من الرفقاء ، فينتزع الحكم من أيدى ولاة طيبة ؛ فى مثل لمحة الطرف ، ثم لا تمضى بضعة أشهر ، حتى يكون القطر كله خاضعاً لحكم عادل يسوده

الأمن والسلم . ولا يقف الأمر عند هذا بل نرى الأعداء من آسيا قد نكصوا على أعقابهم ، وشعب « الطحين » فى لبيبا يرسل الهدايا ويبدى المودة . والواوات فى الجنوب يقسمون أنهم ما عرفوا غير الولاء لمصر ، والحب المفرط لملكها الشاب ، وأنهم مستعدون لأن يسفكوا دماءهم فداء له ودفاعاً عن عرشه .

ولقد كانت مصر دائماً مقسمة إلى مقاطعات ، حدودها معروفة مقدسة . لا يعتدى حاكم على أرض جاره ، ولا يبدل من تلك الحدود قيد أنملة . فزالت معالم هذه الحدود فى عهد الفوضى ، حين كانت القوة وحدها هى التى تقرر اتساع كل إقليم ومقاطعة . ومن أجل أعمال « أمنمحت » — وهو أول أمر نهض به بعد استتباب الأمن — أن تولى بنفسه إعادة الحدود بين المقاطعات إلى ما كانت عليه ، وثبتها تثبيتاً لا يقبل التغيير والتبديل ، وجازى المحسن على إحسانه ؛ وأما الذين أساءوا واعتدوا ، فقد جازاهم بقدر جرمهم .

ولم تقف جهوده عند هذا ، بل تجاوزته إلى تشييد عاصمة تجمع بين الجمال والجلال ، و إلى نشر الرخاء فى أنحاء الدولة ، بل و إلى تشجيع الآداب والفنون . .

إن من السهل على إنسان ورث ملكاً ثابت الدعائم ، راسخ القواعد ، وشعباً متحداً خاضعاً مطيعاً ، ودولة منظمة وخداماً مخلصين ، أن يكون ملكاً عظيما ، وأن يحكم حكماً سعيداً ؛ من السهل على خوفو ، وأمثال حوفو أن يشيدوا الأهرام ، و يجمعوا المال من جميع الأقطار ، و يرسلوا البعثات إلى البلاد البعيدة . ما داموا قد ورثوا ملكا مستقراً تعب فى تشييده مثل صنفرو والذين كانوا من قبله . . وليس من العظمة الضخمة فى شيء أن يسير خوفو سيرة أبيه وجده ، وأن ينسج البرد الذى نصبوا له منواله ، وركبوا فيه حيوطه ، ونظموا لحمته وسداه .

و إنما العظمة التى تفوق كل تقدير أن ينهض إنسان لم يرث من أسلافه غير الفوضى والاختلال والتفكك ؛ فيخلق من وسط هذا كله دولة يسودها الرخاء و يعمها النظام فى الداخل والخارج

هذه خلاصة الوصف الصحيح لأمنمحت الملك الجبار ، وهى صورة جليلة فى ذاتها ، وليست فى حاجة لما يحيطه بها المداحون والمتملقون من التنميق والتزو بق . ولا ينقص من جمال هذه الصورة أن يقول إنسان إن البلاد قبله كانت قد سئمت الفوضى فلم تكد أن تجد هذا القبس من الضياء حتى التفت حوله ،

و بذلت له كل معونة فأتاحت له هذا النجاح العظيم . لقدسئمت البلاد الفوضى منذ أجيال عديدة ، ولكنها لم تستطع أن تتخلص منها إلاَّ حينما جاء « أميني » لإنقاذها

تلك — إذن — أعمال ملكنا العظيم ، أما الشخص الذى صدرت عنه هذه الأعمال فانه بطل قد جمع فى جسده وفى روحه صفات البطولة كلها أو جلها . إن كثيراً من الرجال المشهورين يسرك أن تسمع بهم و يسوءك أن تراهم . ولكن أمنمحت كان يروعك منظره ، كما تسرك أخباره ، فقد كان طويل القامة ، قوى الجسد قوة لن تجد لها نظيراً بين معاصريه ، سريع الحركة جداً لا يستطيع أحد أن يعدو كما يعدو ،أو يثب كما يثب .ولقدرأيته بعينى يعدو خلف الوعل وسط جبال الصحراء ، فلا يلبث حتى يعود به حياً . وله — كما للأبطال العظام فى القصص — قوس هائلة قد صنعها بيديه ، وليس بين معاصريه من يستطيع أن يحنيها أو يرسل السهم عنها . ولقد اشتهرت بين لداتى وأقرانى بقوة الساق والساعد ، و بالرماية المحكمة ؛ ولقد ناولنى الملك قوسه مرة على سبيل الدعابة فما استطعت أن أشد وترها شبراً . فتناولها منى

ضاحكا ، ثم أرسل سهماً فى الفضاء و إذا بطائر من الغر يسقط بين أيدينا . وما كنا نرى فى الجو شيئاً .

وهذا الحادث يكشف عن ناحية من خلقه لا سبيل إلى إنكارها وهى اعتداده بنفسه ، وتيهه وغروره . وحبه للاطراء و إيمانه بأن رأيه مثل سهمه صائب أبداً . والذى علمته من أبى أن هذه الصفات لم تكن ظاهرة فى مسلكه أول الأمر . ولكن اطراد النجاح من غير شك قد أظهر منها ما بطن .

— ٣ —

قلت إن أميني كان يحلو له أن يجلس على عرشه ، وسط وزرائه وحاشيته ، ينصت إلى بعض الشعراء ، وهو ينشد منظومة طويلة يتناوله فيها بالمدح والتمجيد ، وبالتعظيم والنفخيم . وإنى ، مع قلة اكتراثى بطائفة الشعراء ، التى كانت تتردد على القصر فى ذلك الوقت ، لابد لى أن أستثنى منها ، على الأقل ، واحداً . لم يكن شاعراً عظيما فحسب بل صديقاً كريماً ، ورجلا كامل الرجولة

ذلك الرجل هو يونس. الشاعر الأكبر ، الذى كنت أتلهف شوقاً لرؤيته . وقد أوصانى أبى أن أخطب وده ، وأكتسب صداقته لا لأنه كريم الطبع ، جميل المعاشرة ؛ فهذه صفات لم يكن يعبأ بها أبى . بل لأنه مطلع على أسرار القصر ، عليم بما يجرى بين الجدران ولا بد من التسليم بأن الوالد كان مصيباً فى هذا الوصف .

كان من حسن حظى أنى عند ما مثلت بين يدى الملك وهو فى حجرة عرشه كان يتأهب للانصات إلى منظومة من شعر يونس ، فسألنى بسرعة عن أبى وعن أسرتى . ثم أمرنى أن أقف

فى جملة الحاشية ، لكى أنصت إلى الشاعر العظيم .

وبعد لحظة دخل يونس ؛ فاذا رجل وسيم الطلعة لا يزال فى مرحلة الشباب ، وأظنه — برغم جلال الموقف — قد لاحظ وجهى الغريب بين الوجوه المألوفة . ثم لم يلبث أن وقف ينشد الملك ، فى صوت يجمع بين العذوبة والقوة — قصيدة من طراز جديد . لم يشأ أن يمدح الملك العظيم بأن يمطر عليه ألفاظ الثناء العاطر، بطريق الخطاب المباشر، فيصفه بأنه قوى وجميل ، وعظيم وجليل ، وأنه علام الغيوب ، والاله المحبوب ، وفعال المعجزات وصاحب الكرامات .

ابتكر طريقة جديدة وهى أنه أخذ يصف لنا بلاط ملك من الملوك الغابرين ، وقد جلس على عرشه وأحاط به وزراؤه وأتباعه ، ثم يجىء رئيس الكهنة فيدلى أمام الملك بنبوءة عظيمة عن ملك من ملوك مصر العظام ، ينقذ البلاد من الفوضى والاضطراب

وأظنك أيها القارىء تعرف هذه القصيدة . فقد وصف شاعرنا فيها بلاط الملك صنفرو ، وهو من أعظم ملوكنا الأقدمين ؛ وقد وقف بين يديه فى أدب وخشوع كاهن يسمى الروح الجميل ،

فقال له الملك : حدثنا أيها الكاهن حديثاً يسلينا ، ويذهب عنا الضجر . فيقول الكاهن : أيريد الملك المحبوب أن أحدثه عن العهود الغابرة أم العصور القادمة ؟ فيقول صنفرو : بل حدثنا عن المستقبل وارفع عن الأعين الحجب لكى تنفذ إلى السنين والقرون البعيدة .

هنالك يطرق « الروح الجميل » ملياً ، وهو يلتمس النور وسط الغياهب ، ثم يتناول قرطاساً وقلما ، ويخط السطور الآتية :

« أيها القلب الجريح ! اندب هذه الأرض التى عليها درجت وفيها كنت تغدو وتروح ! اندب أرض (بسطة) التى عشت فيها ، وعين شمس التى ولدت بها . . اندب هذه الرياض الفيحاء ، يوم تهب عليها ريح السموم ، تحمل أجلاف الأسيويين ؛ فينقضون على كل قرية آمنة فينتزعون أمنها ورخاءها . ويسطون على الفلاح فى مزرعته ، فيختطفون منه ماشيته ، وهو يحرث بها أرضه .

« أيها القلب لا تهدأ ولا تسكن ، بل قم فاندب هذا المنظر المفجع ، الذى يطالعك أينما نظرت . إن البلاد قد شاع فيها الخراب والدمار . كأن العمران لم يقم بها يوماً . وكأن رع

لم يخلق فيها شيئاً . بل كأنه لم يبدأ أعماله فيها بعد !

« لقد عم الهلاك الأرض كلها ، فلم يبق فيها شيء قائم . وليس هنالك من يعنى بأمرها ، أو يتحدث ، أو يرثى لها ، حتى الدموع قد جفت فلم يعد أحد يسكب قطرة منها .

« عجباً لهذه الأرض كيف حالت عما عهدناه !

« والشمس كيف احتجبت خلف ستار كثيف من التراب والرماد !

« لقد جف الزرع فأصبح هشيماً تذروه الرياح .

« وتطاير التراب حتى ملأ الفضاء كله . وأرسلت الشمس شعاعها الذهبي ، فحالت دونه حجب التراب والغبار المتطاير في السماء .

« حدقي يا عين في المستقبل ، واخترقي حجب الغيب ، لكي أتحدث بوضوح وجلاء عما ستأتي به الأيام .

« نهر مصر العظيم ما خطبه ؟ لقد غاض ماؤه ، وجف مجراه ! فالناس تعبره سعياً على القدم .

« عبثاً يبحثون عن ماء يسيرون فيه سفنهم أو زوارقهم .

« لقد اختلطت الأرض ومجاري الأنهار والقنوات؛ فلا تعرف

أيها النهر ، وأيها الحقل ، وأيها الشاطىء .

« وأقبلت من الجنوب ريح الدبور ، فطاردت ريح الشمال ، حتى أزالتها من الوجود . طردتها من الأرض ، وطردتها من السماء . فوا أسفي على ريح الشمال ، العليلة المنعشة ، التى تنشر الحياة ، وتبعث القوة .

« والطير قد هربت من الدلتا ، وغادرت أرض المستنقعات ، وهى وطنها الذى تضع فيها بيضها ، وتربى فيه صغارها . اضطرت لأن تنزل فى مساكن الناس ، فآوت إلى غير مأوى ، ولجأت إلى غير مأمن .

« وقد خربت البرك ودمرت البطائح ، التى كانت تصاد فيها الأسماك ، والطيور البرية ، وخربت من حولها الديار التى كانت تجفف فيها وتهيأ ، وتعد لتغذية الناس .

« ضاعت خيرات الأرض ، وحلى بها الخوف والجوع ، لكى تمتلىء بطون أولئك البدو الصعاليك ، الذين يجوسون خلال الديار .

« سطا الأسيويون الأجلاف من الشرق على أرض مصر ، وهى آمنة مطمئنة ؛ لا تخشى شراً ، ولا تتوقع أذى . فاذا الويل ينزل بساحتها فجأة والعذاب يغشى أولئك الآمنين الوادعين .

وإذا منازلهم يسطى عليها إذا جن الليل ، ويختطف ما بها ، فكانت العيون لا تعرف للنعاس طعما ، لأنها تنتظر الويل أن يحل بها فى أى لحظة .

« لكأنى أرى وحوش الصحراء أولئك ، وقد أكبوا على الأنهار يكرعون ، ويوشك ماؤها أن يغيض تحت أفواههم . . . ثم أراهم بعد ذلك يترامون على الشواطىء ، دون أن يكون هنالك من يدفعهم أو يذودهم .

« شاع الاضطراب فى القرى والدساكر ، وتهدمت الحدود بين المقاطعات . وكثر السلب ، وانتشر النهب والعدوان ، واغتصبت الحقول من أصحابها ، واعتدى القوى على حق الضعيف . وامتلأت القلوب غيظاً وكمدا . وما يستطيع أحد أن يعرف ما خبىء له فى ثنايا الغيب .

« ألا إنى أرى الأرض الآن ماثلة أمامى تصيح بالويل والثبور ، وتندب أبناءها البررة ! لقد أحالهم السقاء إلى وحوش ضارية . ها هم قد تقلدوا أسلحتهم لكى يكتسبوا قوتهم بالقتال والنضال ، واصطنعوا السهام من النحاس لكى يشتروا خبزهم بدمائهم .

« ولقد ترى أفواههم مفتوحة كأنهم يضحكون ، وما هو إلا ضحك المريض الذى برح به الداء ، وأعوزه الدواء .

« أما الدموع فلم تلبث أن جمدت فى العيون ، والمآقى جفت ، وجل الخطب عن أن يكون الدمع فيه مسعفا أو مخففا . لقد أصبح الموت نفسه شيئاً مألوفاً . وأينما نظرت أو توجهت ألفيته قائما بين يديك ، يحدق فى وجهك ، ويكشر عن أنيابه المستطيلة الزرقاء .

« والقتل الغادر الحانت ، كامن فى كل ركن وتحت كل حجر ، ووراء كل جدار . وكأنى أرى الصديق يغتال صديقه ، والأخ يفتك بأخيه ، والابن — يا رباه ! بأبيه ...

« فظائع لم يعرف القطر لها شبيهاً فى أى زمان !

« ولقد احتشدت البلاد بجموع من الشحاذين فى أسمال بالية ، ووجوه جافة شاحبة، كأنما انشقت عنهم المقابر. وماذا يشحذون ، وممن يسألون ، وقد أصبح الغنى ذو الجاه فقيراً معدماً . بعد أن سلبوه ماله وأرضه ومتاعه ، وأعطوها لجلف من أولئك الأغراب ، النازحين ، وأينما ذهبت ترى صاحب الثروة يتضور جوعاً ، والغريب يعيش وسط النعيم واليسار .

وامتلأت الصدور حقداً وضغناً ، واشــتد بالناس الضجر والغيظ المكبوت . حتى ما يطيق إنسان أن يسمع صوتاً ، ولا يحتمل أن توجه إليه كلمة . فلا يكاد اللفظ أن يغادر الشفتين حتى ترفع العصى ، وتستل المدى . وتشتعل الحفائظ .

« ومن العجائب أن ترى الحكام وأولى الأمر قد ازداد عددهم أضعافاً مضاعفة ، بينما تتضاءل الأرض ، وتقل مساحة المنزرع منها . الحقل فقير النبات ، والضرائب كبيرة ضخمة . والحب قليل ، ولكن مكيال الجباة عظيم . وهم يملأونه حتى يفيض و يطفح .

« حيل بين الناس و بين الشمس المشرقة ، فهى فى عالم وهم فى عالم آخر . و بينهما التراب الكثيف ، تثيره العواصف من الأرض الجافة ، قد زال عنها النبت والشجر ، وما يقدر الناس أن يميزوا ظهراً من عصر لأن الأجسام ليس لها ظل . والأشعة الباهرة لا تقع على جسم . على أن الشمس ما برحت فى جو السماء . تشرق كما كانت تشرق من قبل ، وتجرى فى السماء كما كانت تجرى . ولكن دونها كل هذه الطبقات الكثيفة من الغبار والتراب . .

« أجل أيها الملك العادل صنفرو ، إن القطر سيغمره الشقاء من جميع أطرافه . والبلاد يشملها الحزن ، وتضنيها الآلام . وقد ساد الاضطراب ، وعمت الفوضى . . وقد أصبح العزيز ذليلا ، والوضيع كريماً . وطورد الموسرون من قصورهم حتى اعتصموا بالمقابر . وعين شمس وطني ومسقط رأسي قد زايلها العمران ، وباتت قفراً بلقعاً . .

فسبحانك اللهم ! كيف جاز للدمار أن يغتال أرضاً هي مهد الآلهة جميعاً ؟

« ما هذا الذى أراه ؟ إن الغمة تنجلى ، والغبار ينجاب . والشمس تشرق . وهذا ملك عظيم مقبل من الجنوب ، إنه أميني ، ولدته فى مصر العليا أم من بلاد النوبة .

« إنى لأراه يلبس التاج الأحمر ، ويستلم التاج الأبيض . ثم لا يبرح حتى يلبس التاجين ، ويجلس على العرشين . وقد أظله علم الإلهين .

« فانعموا يا بنى عصره بهذه السعادة التى أتيحت لكم ! إن رجلا عظيما سليل بيت كريم ، قد نقش اسمه فى سجل الخلود . أنظروا إلى الشريرين كيف يتوارون عن الأنظار ،

وإلى الجبارين المعتدين كيف ذلت أعناقهم ، وخفتت أصواتهم . وإلى الأسيويين الأجلاف كيف يقتلون ويمزقون ! وإلى الليبيين اللؤماء كيف تذهب دورهم وأجسادهم طعاماً للنيران . .

« يا له من ملك عظيم استطاع أن يكر على الأعداء بيمينه ، ويخضع الثوار بيساره . وقد أجلى الأعداء عن أرض الوطن بسطوه وبأسه . وجمع حوله القلوب النافرة بهيبته وعدله . وعلى جبينه اللامع ثعبان الملك . لا تكاد تبصره العيون حتى تستشعر الهيبة والتقوى .

« ولكنه لا يكتفي بقهر الأعداء وتمزيقهم ، بل يقيم فى شرق الدلتا أسواراً وحصوناً ، لكى يرد بها وحوش الصحراء إذا حدثتهم أنفسهم مرة أخرى بأن ينقضوا على هذا البلد الآمن . فانظر إليه كيف يخدم عصره ، والعصور التى بعده . فاذا أراد الاسيويون بعد اليوم ماء يسقون به ماشيتهم ، فليلتمسوه التماساً ، فى ذلة وخضوع كما كان دأبهم من قبل .

« وهكذا يعود الحق إلى نصابه ، ويزهق الباطل ، ويمحى من الأرض . إن الذين يشهدون هذا كله ، ستمتلئ نفوسهم سروراً

وغبطة ، وسيقبلون على مليكهم العظيم لينالوا شرف خدمته ، والائتمار بأمره .

« ولعلى — فى ذلك الزمن البعيد — أن يذكرنى ولى من الأولياء ، فيلقى على جدثى سجلا من الماء ، ويلتمس الرحمة لروحى ، حين يرى أنى ماقلت إلا الحق ، ولم أنطق بغير الصدق »

* * *

فرغ يونس من إنشاده ، وانحنى راكعاً أمام الملك . فقال له أمينى : « أحسنت يا يونس ، إن هذا شعر جديد مبتكر »

— ما أتيت بشىء من عندى يا صاحب الجلالة ، إنما هذه نبوءة الكاهن ، الروح الجميل ، ما زدت على أن نقلتها عن قرطاس قديم عثرت عليه فى مكتبة قديمة .

قال الملك : دع عنك هذا التلفيق ، وسيكون عطائى جيداً جودة قصيدتك . ما رأيك يا سنوحى الصغير فى هذا الشعر ؟ — هل سمعت من قبل بقصيدة محبوكة البناء ، رصينة اللفظ ، دقيقة المعنى ، مستقيمة الوزن كهذه القصيدة ؟

فأجبت : إنه لشعر بديع ، وما كنت أتوهم من قبل أن نظم الشعر قد ارتقى ، حتى بلغ هذا الشأو البعيد . ولمولاى

الفضل الأكبر فى أن شخصه الكريم ، وأعماله المجيدة ، قد أوحت إلى شعرائنا بمثل هذا الشعر واضطرتهم لأن يحلقوا فيبلغوا هذا السمو الهائل .

ذلك ما أجبت به الملك على الفور والبديهة . وهكذا ألفيت نفسى مندفعاً إلى مخاطبته بعبارات الملق ، التى كنت أظن أنى أنفر منها . فاذا هى تخرج من بين شفتى من غير تكلف. وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ وصايا الوالد العزيز .

فنظر إلى الملك وقال : « إنك تحسن الكلام . فلعلك أن تحسن الرماية أيضا . فى موعد غير بعيد سيعقد حفل عظيم يتبارى فيه الرماة . وهم واقفون على هذا الجانب من النهر . أما الهدف فانه سيكون فى الضفة الشرقية . هذا أمر لم تسمع به من قبل . فان الناس من قبلى قلما كانت تصل بسهامها إلى أبعد من مائة ذراع . أما اليوم فلا بد لهم أن يبلغوا بسهامهم خمسمائة ذراع . وسنضحك كثيرا عند ما نرى سهامهم تتساقط فى الماء ، فلا تنس أن تعد نفسك لذلك اليوم . فما يجدر بابن سنوحى الكبير أن يقصر فى هذا المضمار ! وكثير منهم سيؤوب من المضمار بذراع يتصبب منها الدم . لأنى لن أسمح لأحد من

المتسابقين بأن يلبس وقاء على ذراعه اليسرى .

« إن الرماية يا سنوحى الصغير ، ليست مجرد عمل هين يسير . بل هى صناعة من أجل الصناعات وأدقها ؛ إن كل صعلوك يستطيع أن يرمى سهما عن قوس . وكثير من الرماة يظن أن القوس يجب أن تكون طويلة والوتر رنانا لكى يصيبوا الهدف البعيد . وإنما القوس الباهرة هى القوية فى مرونتها ، التى لا تنحنى إلا بضغط مركز متصل ؛ فاذا أطلقتها ارتدت فى سرعة البرق الخاطف ، ودفعت بالسهم مئات من الأذرع .

« والآن انطلق أنت أيضاً كالسهم ، والحق بالأمير آنى . فانه يتوقع رؤيتك »

ركعت بين يدى الملك ، عند ما ألقى إلى أمره هذا ؛ ثم تراجعت متقهقراً — وأنا أختلس نظرة إلى الشاعر البارع — حتى وصلت إلى خارج الغرفة الملكية . فوجدت على بابها رجلاً من حاشية الأمير «آنى» ينتظرنى ، فصاحبته إلى قصر الأمير ، الملاصق للسراى الملكية .

ولا بد لى قبل أن أنتقل إلى حديث آخر أن أذكر القارىء بما جاء فى القصيدة التى أنشدها يونس ، من وصفه الملك بأنه

ابن امرأة من النوبة . إن لهذا الأمر شأنا عظيما فى الحوادث التى ستجتازها مصر بعد قليل . لقد كان أمينى يفخر بأنه ابن نوبية . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى عهد نشأته ، وأنه كان يُعَيَّر بأن قد ولدته امرأة من النوبة . فأراد أن يخرس الألسن الشريرة . فجاهر بالفخر بأنه من أبناء الجنوب ، وأن التى ولدته نوبية صميمة .

ومهما يكن من شيء فان هذه الصلة النوبية قد ثبتت فوق أنفه الملكى الكريم ، إذ أكسبته هذا الفطس اليسير ، الذى نراه فى تماثيله واضحا كل الوضوح . ولقد أراد المثالون أن يلطفوا من أمر هذا الفطس ، وأن يرتقوا بالأنف الملكى إلى العلياء قليلا . . . فزجرهم « أمينى » أشد زجر ، وأمرهم أن يزيدوا أنفه فطسا ، فانه بهذا جد فخور .

إن لهذا الأنف والدم النوبى علاقة وثيقة بالحادث الهائل الذى سيحل بالقصر بعد قليل . وسنأتى على ذكر هذا الحادث فى وقته المناسب . ولكنى أردت منذ الآن ألا تفوت القارىء ملاحظة هذه الأمور التى تبدو تافهة فى مظهرها وهى جليلة فى خطرها .

— ٤ —

غدوت على قصر الأمير « آنى » فلم ألبث طويلا حتى أذن لى بالدخول إلى حجرته الخاصة . كان جالسا هناك على أريكة زرقاء تضاهى بزرقتها لون الخوان الذى بين يديه ، ولون جدران الحجرة ؛ وإلى جانبه زوجه ، ولم أجرؤ أول الأمر على النظر إلى وجهها . ولكنى استرقت النظر إليها فيما بعد ، فألفيتها بيضاء البشرة فى شعرها صهوبة غريبة ، وفى وجهها شدة وصرامة ، وقد أطبقت شفتاها إطباقا ينم عن الإرادة ، والعزم النافذ . تقاطيعها مليحة من غير شك ، ولكن ملاحتها كادت أن تخفى حين طغت عليها مظاهر القوة ، التى تنطق بها كل جارحة من جوارحها .

تلك هى « نورا » التى اختارها الأمير العزيز زوجا من دون النساء ، بل لعلها هى التى اختارته ، فلم يستطع عنها مصرفا .

أما الأمير فكان البشاشة المجسمة ، وعلى وجهه الأسمر الزاهر دلائل الإفراط فى جميع تلك الأشياء التى تبعث السرور فى النفوس ، وتزعزع أركان العقل ، وتترك آثارها مرسومة فى

خطوط طويلة ، مستقيمة أو مستديرة ، حول الفم ، والجفون .

ولم أكد أقف بين يديه حتى بادر بتحيتي :

— عم صباحا يا سنوحي العزيز . لقد سمعت من جلالة الملك أطيب الحديث عن أبيك ، ولا أشك في أنك ستثبت أنك أهل لهذه الأبوة العظيمة . لم يحضر أبوك معك . وقد كنت أود أن أراه .

— إنه يزعم يا مولاى أن شئون الأسرة والزراعة تقيده بسلاسل من نحاس فلا يستطيع عنها انفكاكا .

— أحسبه يفضل رعاية البقر السمين والضأن الوديع ، والماعز ذى القرون الهيفاء ، وأن يخرج إلى البركة ، فيرى آلاف الأوز سابحة فوق الماء ، فلا تكاد تراه ، حتى ترفع أعناقها إلى السماء وهى تصيح كلها فى نغمة واحدة ، تحييه بلحنها الشجى ، الخالى من كل تكلف . ثم ينصرف إلى جزء آخر من البركة ، فاذا البط ذو الأصابع المشبكة ، يدفع الماء برجليه ، ويزاحم بعضه بعضا ، لكى يلتقط فتات الخبز ، التى يلقيها إليه سنوحى الكبير .

ثم يترك البركة ، عائداً إلى منزله وسط حقول الحنطة ، فإذا هى قد علته ، وارتفعت رؤوسها ، ويوشك هو أن يختفى وسطها ،

حتى إذا اقترب من داره أقبل ثوره المحبوب ، لكى يتاقى من سيده ما اعتاده من الملاطمة والمداعبة . هذه هى الحياة يا سنوحى، لا حياة القصور والحاشيات والبطانات . . .

كان الأمير يلقى هذا الوصف للريف ، ووجهه ضاحك مستبشر ، حتى إذا وصل إلى ذكر القصور أخذ وجهه يتجهم ، وعلته سحابة كآبة . ونظر إلى الأميرة كأنه يخشى أن تقول شيئاً . فلم تكذب نظرته لأن الأميرة بادرت فقالت وكأنها تكظم ما فى نفسها :

« ما ينبغى لنا ، وسنوحى لم يكد يستقر به المقام بيننا ، أن ننفره من رجالنا ، وحاشيتنا ، والحياة التى نحياها . واست أشك فى أنه سيجد بيننا مقاماً طيباً ، ولدينا من وسائل اللهو والتسلية ، ما لا سبيل إليه فى الريف . ولكل حياة ميزاتها . .

هذه شقيقتى « بتسى » قد أقبلت وأريد أن يكون لسنوحى شرف مقابلتها ، فلا بد له أن يحس أنه حين نزل بيننا قد استبدل أهلاً بأهل ، وعشيرة بعشيرة » .

فى تلك اللحظة دخلت « بتسى » وفى تلك اللحظة تحولت تلك الحجرة إلى غرفة من غرف السماء ، وكأن جميع الآلهة

والآلهات قد أطلت عليها مرة واحدة . ومن الخطأ أن يقال : دخلت بتسى ، بل هبطت علينا من وسط النجوم ، لأن هذا النور الذى بهرنا وغمرنا ، ليس فيه من هـذه الأرض شىء . ولقد قابلت بتسى بعد ذلك مراراً . فكان هذا الشعور يعاودنى فى كل مرة . فأحس ، إحساساً لا سبيل إلى الخلاص منه ، أنها لم تقبل على ، بل نزلت إلى .

إن بتسى شقيقة الأميرة . ولكن شتان بين الأخت وأختها فقد تشابهتا فى الملامح والتقاطيع وفى بياض البشرة . وطول القامة والشقرة الممزوجة بالصهوبة ، وبالعيون الشديدة الزرقة . التى لم أتبينها إلا بعد مقابلات عديدة . . ولكن هذا التشابه على قربه سطحى ، فإنك تقرأ فى وجه الأميرة ، الصرامة والقسوة ؛ وفى وجه بتسى — إذا استطعت أن تطيل النظر إليه — تقرأ الهدوء والعطف والحنان . وتقرأ فيه شيئاً آخر لاسبيل لأن تراه فى محيا الأميرة : وهو الحب . كان وجه بتسى يفيض حباً . وكانت كل حركة أو نظرة أو ابتسامة منها تشع بالحب ، فتملأ الجو صفاء وطهراً . . . إن الذين يعيشون تحت ظل هاتين العينين لا يمكن أن يجد الشر سبيلاً إلى قلوبهم . فما أسعدنى

بهذا الجوار ، وما أجدرنى أن أجد فيـه سعادة العمر ، ونعيم الحياة !

بهذا حدثتنى نفسى ، وهى نفس عجول ولم تلبث الحوادث أن بدلت من هذا الحكم ، وألزمتنى بالاعتراف بأن الشوك قد ينبت مع الورد . وأن الشهد الجنى قد يكون إلى جانبه السم الزعاف . ولكن بتسى برغم هذا كله لم تزل هى الشعاع المشرق وسط غياهب الحياة ، والأمل الباسم حين يعبس وجه الزمان .

جلست على كرسى بجانب شقيقتها بعد أن حيتنا جميعاً بتحية الصباح . وقد عرفوها من القادم الجديد ، فنظرت إلى باسمة بثغر قد أطبق ورده على لؤلؤ مكنون وقد اضطررت لأن أستجمع إرادتى كلها و إرادة أسلافى من السنوحيين جميعاً ، لكى أحول بصرى عنها ، وأنظر إلى وجه مولاى الأمير . انتظاراً لأمره أو إشارته .

ولم يلبث أن نظر إلى وقال : « تستطيع الآن أن تنطلق إلى دارك يا سنوحى ، وستجد بالباب خادماً يصاحبك إليها . وأريد منك أن تستريح يومك هذا ثم تغدو على صباح غد ، فانى أريد أن أخرج إلى الصيد ، إذ لا بد أن تجدد علمك بالرماية ، استعداداً

لليوم العظيم الذى ينتظره الجميع بذاهب الصبر . والويل لك إن لم تبرز فى هذا الميدان فان أبى لا يرحم ولا يغفر الذنب .

إنى أتمنى لك نجاحا باهراً . وسأحاول جهدى ألا تفوتك فرصة الاستعداد والمران ، ولكنى على ذلك أخشى تفوقك وانتصارك ، لأنى أحببتك وأريد أن تظل فى خدمتى ، وألا تبرح حاشيتى ، وأكبر الظن أنك إن فزت ، فان صاحب الجلالة لن يلبث أن يصطفيك لنفسه ، أو لنجله المفضل «سينو »

ولست أريد أن أقف فى سبيلك . ونحن على كل حال قد غدونا أصدقاء أوفياء . أتعاهدنى على هذا ؟ »

لم يكن من الصعب على أن أعاهد الأمير على الوفاء ، بعد أن غمرنى هذا البحر المتدفق من فضله ، وبعد الذى بلوته من رقته ونبله ، ثم ركعت بين يديه محيياً ، واختطفت لمحة سريعة من محيا بتسى . ثم انطلقت إلى دارى يتبعنى خادمى

***

إن القارىء لابد مدرك أننى فى ذلك اليوم — ظهره وعصره ومساءه — لم يبرح خاطرى خيال « بتسى » ، فقد احتل ذكرها قلبي كله ، وطرد منه كل ذكر وكل حس آخر . وبلغ من شدة

أثر هذا اللقاء فى نفسى أنى لم يخطر ببالى أن أتساءل عن السر فى أن وجهها لا يشبه وجوه بنات مصر، وأنها لا بد أن تكون من جنس غير جنسنا . لقد كنت فى شغل بها عن التفكير فى أمرها ، وأذهلنى حبها عن السؤال عنها ، حتى أتيحت لى الفرصة مساء ذلك اليوم ، بأن قابلت يونس الشاعر .

فى ذلك المساء خرجت من دارى أتمشى وأنا أعلم أنى إن آويت إلى مضجعى فلا أمل فى أن يزور الرقاد جفنى . مشيت على النيل حتى وصلت إلى نهاية المدينة ووليت وجهى إلى الناحية التى قيل لى إن فيها دار يونس ، وهى منعزلة عن سائر الدور . فلم ألبث أن سمعت عن كثب نشيداً يرتفع فى الفضاء يصاحبه عزف على طنبور، وكأن المنشد جالس على باب داره ، فاقتربت فما شككت فى أنى أسمع صوت يونس ؛ وأصغيت إلى كلامه فسمعته يغنى :

أيا منزلاً بالرغم منى نزلته ،
وبالرغم منى عنه سوف أزولُ . . .
إذا لم تَطِبْ فيك الإقامة ساعةً
فما جزعى من أن يحين رحيل ؟

فانتظرت ريثما وقف الإنشاد مليا ، ثم بادرت فاقتربت منه وصحت : « ويحك يا يونس ! هل سئمت الحياة ، ومازلت فى ريعان الشباب ؟ »

— حييت ياسنوحى . لقدكنت أرجو ألا ينقضى اليوم حتى أراك فإذا رجائى يتحقق . تعال واشرب معى قدحا من الجعة ، أما إيثارى الشعر الحزين ، فانى وجدت فى الحزن من بواعث الطرب ما لس فى الدعابة والمجون .

— لقد أبدعت كل الإبداع ، فى قصيدتك التى أنشدتها بين يدى الملك اليوم ، وقد أعجبنى منك هذه الطريقة البارعة فى مدح ملكنا ، دون أن تخاطبه بكلمة . وكأنه لم يخلق بعد ...

— ماذا أصنع وقد تهافت شعراؤنا على المدح المباشر ، بعبارات يوشك ألا يكون بينها اختلاف ، ومعان يرددها الواحد بعد الآخر ، من غير ملل أو سأم . . .

والآن دعنا من ذكر الشعراء ، وهلم هذا القدح من جعتى التى صُنِعت على عينى . وأنا بها جد فخور .

رحبت بهذه الدعوة وجلست إلى جانبه على أريكة فى شرفة المنزل و بين يديه خوان قد وضعت عليه الباطية والأقداح .

— إنها جعة عظيمة . وإنك لمبدع فى كل ما تصنع . ومع هذا ، وبرغم جودة الجعة ، فانى أريد أن أعود بك إلى حديث الشعر . وأن أستطلع رأيك فى الطور الجديد الذى انتقل إليه . وهذه القيود الجديدة التى يتقيد بها من أوزان وأحكام وقواف . ألم يكن الأمر أيسر والشعر فى جملته أروع ، فى عهد الدولة القديمة حين كان الشعراء غير مكترثين بالوزن ، ولا يلتزمون قافية ، ولا يخضعون لحكم أو قانون ؟

« ألم تنصت إلى شعرهم الحر الجرىء ، يتدفق من غير كلفة أو قيد ، كما تمليه السليقة ، ويلقى به الجنان الثائر ، الذى امتلأ عاطفة ففاض شعرا ؟ »

قال يونس : « لا أشك فى أن الذى تقوله يشتمل على صواب كثير . لقد كان القدماء لا يعرفون الوزن ولا القافية كما نعرفهما اليوم ، وكانوا يعتمدون على طبع وحشى ، لم يهذبه التعليم ، ولم نرق به الصناعة . فكان جل اعتمادهم على التدفق والانسجام ؛ ومع هذا فقد كانوا يراعون فى شعرهم ضرباً من الرنين والائتلاف هو فى الحقيقة عبارة عن الوزن والقافية فى حالة النشوء وبداية التكوين »

— أليس له تأثير يضارع تأثير الوزن والقافية ، وهو بعد هذا بریء من وصمة التكلف ؟

— إن شعر القدماء قد ضاع أكثره ، وتكفل الزمن بالقضاء على الغث ، واستئصال الفاسد . فبات الذى بين أيدينا وكله من عيون القريض ، فمن الظلم لشعرنا الحديث أن نقارنه فى جملته بشعر القدماء فى جملته . بل الأوفق أن نقارن أحسن وأروع ما أنتجه عصرنا ، بأجمل وأروع ما خلفه الأوائل . وظنى أن هذه المقارنة ستثبت لنا أن إنتاج عصرنا أبهى وأبهر .

« إن القدماء فوق هذا قلما عالجوا من الموضوعات إلا القليل، وقلما نجد من الشعر الرائع إلا ما وصفوا به شيث الجبار ، حين يقبل فى ظلام الليل وعيناه تتأججان حقداً وضغنا فيطعن عزيرا بخنجره طعنة نجلاء . . . وبعد أن يصرعه ويروى الثرى من دمه ، يأخذ فى تقطيع رأسه وأوصاله وأعضائه عضواً فعضوا ؛ ثم يتناولها بيديه الدمويتين ، فيرمى بها فى طول البلاد وعرضها ... ثم تجيء إيزيس الزوجة الوفية ، والأخت الطاهرة ، فلا تزال تبحث فى أرجاء القطر ، حتى تلتقط الأعضاء والأشلاء وتجمعها ، وتنفخ فيها من روحها ، حتى تعود إليها الحياة لحظة .

وفى تلك اللحظة ينبت فى بطنها الطاهر ذلك الجنين العظيم ، هورس ، ولا تمضى الأشهر المعلومة حتى يولد لها ذلك الطفل الإله ، الذى لا يلبث أن ينمو ويكبر ثم يمضى لأخذ الثأر من المجرم الأثيم الذى سفك دم أبيه ؛ وهكذا إلى آخر الرواية .

«إن مثل هذه القصة التى يرويها الناس بإيمان وحماس ، لا بد لها بعد أن يتداولها الشعراء ، أن تكتسب صيغة ذات تأثير شديد ، مهما كانت تلك الصيغة وحشية بدائية ، لم تهذبها الصنعة ، ولم تصقلها البراعة ، والمهارة الفنية ... »

— ولم يدخلها التكلف والقيود المفتعلة

— لقد كانت من غير شك أدنى إلى الفطرة . كما كانت الحال فى جميع الفنون . . . ولكن من الظلم والتعسف أن نزعم أن الصنعة ، ودقة النسج ، وإحكام النظم قد أنقصت من تأثير الشعر . وهذه الأشياء التى تصفها أنت بأنها تكلف وتقيد ، لا تكاد أن تحسها فى أيدى الشاعر البارع . والسر العظيم الذى ينطوى عليه الشعر الجيد ، هو أنه يشتمل على كل هذه القيود :

من وزن وقافية وموسيقى ولفظ منتخب ، ثم تنصت إليه ، فلا تكاد تحس من هذه القيود شيئاً . .

— ويحك يايونس ! إنك قد جمعت بين الشعر والحكمة ، وأنت أحدث ميلاداً من أن تحشر فى زمرة الحكماء .

— إننى لم أتجاوز الثلاثين ربيعاً بعد . ولكن الجمة الطيبة توحى بالحكمة أحياناً . . .

وعلى ذكر الحكمة والحكماء . يسرنى أن ننتقل من حديث الشعر ، إلى حديث الحياة ، لقد بحثت عنك اليوم لأدعوك إلى منزلى . فقيل إنك فى دار الأمير آنى . ومن حسن التوفيق أن ساقتك رجلاك إلىّ

— وما علاقة رجلَىّ بالحكمة والحكماء

— ذلك أنى أصبحت ولى صدق فراسة الحكماء . وقد رأيتك اليوم ، فأبصرت السذاجة والطيش مكتوبين على جبينك بأقلام من النحاس .

— سامحتك الآلهة . وما أظنها تفعل .

— وستسامحنى أنت أيضاً . حين أطلعك على ما حولك من

مزالق الأقدام ، فتشكر اليد التى أمسكتك فى الوقت المناسب ، قبل أن تزل رجلك السريعة الزلل.

« إنك يا سنوحى مخلوق عجيب ! ها أنت ذا تنزل عاصمة الدولة ، وأنت غريب الدار لا تعرف من سكانها أحدا . ولا تدرى من شئونها إلا القليل ، ثم تسوقك المقادير إلى دار رجل مثلى له قليل من الاطلاع على ما يدور سراً وعلانية ، وقضى أعواماً طوالاً يتقلب فى أفنية القصر الملكى وقصور الأمراء والوزراء . فجلست تتحدث إليه ، فلم يكن سؤالك عن المملكة أو القصر ، أو الأمير أو بتسى ؛ بل كان كلامك عن الشعر قديمه وحديثه ، وقيوده وأوابده . حقاً أنك لصعيدى من أكلة الجرذان . »

— إنكم معشر الشعراء قوم ذوو ألسنة حداد .

— أنصت إلىَّ ، واستعن على الإنصات بهذا القدح ! . . .

« إن هذه العاصمة الباهرة قد أنشئت إلى الجنوب من منف المقدسة ؛ لكى تجمع القلوب المتنافرة ، وتؤلف بين أجزاء المملكة التى طال بينها الشقاق ، ومزقها التحاسد والتنافس . ولقد رأى أمينى فى جملة ما رأى من وسائل التوفيق والتأليف بين القلوب أن يتقرب إلى ذوى الجاه والسلطان ، من حكام المقاطعات ،

فملأ حاشيته بأبنائهم وقصره ببناتهم ، واتخذ منهن زوجات ووصيفات . وبذل جهده فى إكرامهم والإحسان إليهم جميعاً . وبات القصر مزدحماً بما فيه من نساء مختلفات المشارب والمذاهب والمصادر والموارد . وزاد فى هذا الخليط العجيب أن عاد الملك من إحدى غزواته ، بهؤلاء الليبيين ، وبأولئك الليبيات ذوات الشعر الأصفر والجلد المقشر .

« ولكن أمراً واحداً ، أقدم عليه أمينى دون أن يبالى بالتقاليد والأوضاع والسنن الشرعية . فإنه بدلا من الزواج من أخته وشقيقته ، رأى أن يتبع هواه فى زواجه ، وأن يزوج أخته من أحد أمراء الشمال ، فأنجبت الأخت الأمير آنى ، وأنجب الملك الأمير سينوسرت . وزادت المقادير المشكلة تعقيداً بأن ولد الغلامان فى يوم واحد . فأيهما يرث العرش ؟ ابن الأخت كما تقضى بذلك الشرائع المقدسة ، أم ابن الملك كما تشير بذلك عاطفة الأبوة ، التى لا تقل حرمة وتقديساً ؟ وقد نما الغلامان وترعرعا فإذا هما خير من أنجبت الأمهات . قد كملا خَلقاً وخُلقاً ؛ وضربا بسهم فى ميادين العلم والعمل . وفى وسع الملك أن يرسل كلا منهما على رأس جيش ضخم ، وهو

واثق أنه سيضطلع بالعبء بما يبعث الفخار ، ويحقق الرجاء .

« وليس مما ينقص من شأنهما أن أقول إن بينهما اختلافا قليلا . فإن آنى أكثر رزانة وهدوءاً ، وأكثر ميلا إلى الدعة ويحب اللهو والحياة المرحة . وبرغم قيامه بما يأمره به أبوه من محاربة الأسيويين ، فإنه يرى السعادة الحقيقية فى الحياة الهادئة فى المنزل وفى الريف . أما سينو فليس أحب إليه من الحرب والقتال ، وقيادة الجيوش ، واقتحام الأخطار . وأشهى شىء إلى نفسه أن يقود الغارة إذا طلع الفجر ، فينقض على العدو ، كأنما نزل من السماء ، أو انشقت عنه الأرض .

« وخلاصة الحديث أن مصر لو كانت تبغى مَلِكا للسلم ومَلِكاً للحرب فإنها أسعد بلاد العالم بأميريها ، ولكن مصر تبغى ملكا واحداً . وليس فى العرش مكان إلا لجالس واحد . بالرغم من زعمنا المتكرر بأن القطر قطران ، والعرش عرشان ، والتاج تاجان . ولم يكن بدّ بعد أن كبر الأميران وارتفع صيتهما فى البلاد من أن يتساءل الناس : « أيهما سوف يلى الملك ؟ » ... لقد عاش رجال القصر زمناً ، وهم فرحون بأن للملك ولدين ، كأنهما نجمان ساطعان ، حتى إذا ما كبرا وترعرعا ، أخذ الناس

يدركون أن لهذه النعمة الجليلة ، ناحية أخرى تبعث القلق ، وتثير الخوف . فلقد تألف حول كل من الأميرين ، عصابة من الخلان والأصدقاء ، تؤيده وتتملقه ، ولكل منهما أنصار تعمل سراً أو جهراً لكى يفوز صاحبها بحق الوراثة ، لعلهم أن يبلغوا بذلك ما تطمح إليه أبصارهم من الرفعة والمكانة .

« ولم يلبث القصر الملكى أن أصبح مسرحاً للدسائس ، تحاك فيه خيوطها المعقدة، بمهارة و إتقان ، ووجدت الفتنة فى هذا الجو المكفهر فرصة نادرة ، فجعلت تنفث سمها ، وتمد جذورها ، و إذا غاب الملك فى حرب أو غزو رفعت رأسها جهاراً ، و إذا عاد إلى قصره خفضت رأسها وعادت إلى العمل فى الخفاء »

— ألم يفعل الملك شيئاً لوقف هذه الدسائس ؟

— إن الملك الذى لم يعرف فى حياته إلا الفوز الباهر ، والانتصار السهل ، هو آخر من يسىء الظن أو يحسب للدسائس حساباً .. أو يفكر فى العواقب ، وكأنما يظن أن بينه و بين الدهر عهداً ألا تجرى الأيام إلا بما يريد و يشتهى .

«وقد بلغ به الأمر أن بات مغمض العينين على الحقيقة التى تطالعك أينما سرت فى طريق أو دخلت منزلا من منازل هذه

العاصمة الجميلة « قاهرة القطرين » ، حيث الناس جميعاً قد انقسموا حزبين : حزب الأمير آنى ، وحزب الأمير سينو . والأول يناصره أهل الشمال ، والثانى حزبه أهل الجنوب ذوو البأس والخطر ، كأنما عدنا مرة أخرى إلى عصر « عزير » وأخيه « شيث »

«ثم لم تلبث الأمور أن ازدادت تعقيداً بزواج الأميرين . فأما سينو فتزوج من ابنة « أمينى » كما تقضى بذلك التقاليد المقدسة . وأما آنى فقد جن غراماً بالأميرة الليبية (نورا) التى نزلت القصر كإحدى السبايا ، فلم تلبث أن أصبحت لها فيه مكانة هائلة ، لقوة شكيمتها وشدة بأسها . وكان فى طبعها وأخلاقها ذلك الجانب الوعر الذى لا تجده فى طبع الأمير آنى .

— أهذا هو سر ذلك الغرام الذى استحوذ على قلبه ، ودفعه إلى الإصرار على الزواج بها ، أم تراه قد عشق منها هذه البشرة البيضاء الشاحبة ، والشعر الذهبى ، والعيون الزرقاء ، التى لانجد لها نظيراً فى ديارنا ؟

— إنه على كل حال ، قد أصر على الزواج منها ، وهو يعلم أن الأمراء ليسوا أحراراً فى اختيار زوجاتهم . وأن أمر زواجهم ليس

شأناً من شئونهم ؛ بل هو من أخص شئون الدولة ، وليس للعاطفة البشرية فيه مكان ، وليس له أن يفكر فى اتخاذ أبيه قدوة ؛ لأن ظروف زواج أمينى تختلف عن ظروف آنى ، وقد تزوج أمينى أميرة مصرية ، لا أسيرة ليبية ، ولست أشك فى أن الأمير آنى كان يعلم ما هو مقدم عليه ، ويدرك أنه بخروجه على تقاليد القصر ، يضحى بحقه فى العرش ، وأكبر الظن أنه لم يكن يكترث للعرش أو للوراثة .

ولا شك فى أن خصاماً شديداً قد جرى بينه و بين الملك من أجل هذا الزواج ؛ فإن الملك شديد الرغبة فى أن يكون زواج كل من أبنائه وسيلة لتثبيت قواعد الملك ، وتقوية دعائم العرش ، وربما لم يكن يرى بأساً فى أن يتخذ آنى هذه المرأة وصيفة أو جارية . ولكنه كان ينفر أشد النفور من أن يتزوج ابن أخته ووريثه من هذه السبية .

— ولماذا لم يقبل الأمير أن يتخذها جارية ؟

سألت هذا السؤال وأنا متردد ، لأنى فى تلك اللحظة تمثلت أمام عينى « بتسى » فسخرت من الفكرة التى تجعل من هذه الفاتنة جارية من جملة الجوارى .

فقال يواس : « أتراك لا تعرف من هى نورا » ؟ أتجهل أنها أميرة ابنة أمير ؟ وهى فوق هذا كله امرأة قوية الشكيمة ، جبارة العزم . فأنى لمثلها أن تقنع بمكان الجارية ، وهى التى تطمح ببصرها إلى أسمى المراتب ؟ »

— صدقت . لقد رأيتها ساعة من الزمن فما شككت فى أننى فى حضرة شخص ذى قوة وعزم ، وإدراك تام لما يروم ، وللطريق التى تؤدى إليه .

— إن الطريق لم تعد سهلة ميسورة . فإن « أمينى » وإن أبدى الرضى عن زواج « آنى » ، فإنه لم يلبث أن أسر إلى وزرائه أن ابنه الأكبر هو الأمير سينو الذى ولد — فى زعمه — قبل آنى ببضع ساعات . ومن عجب أن قد ظلت هذه الحقيقة الخطيرة مجهولة تماماً ، فلم تظهر إلا بعد ذلك الزواج . ومهما يكن من الأمر ، فقد أصبح مسجلا فى وثائق الدولة الرسمية ، وإن لم يعلن بعد للناس ، أن أمر ولى العهد قد بات من الأمور المقررة ، التى لا سبيل إلى الرجوع فيها ، وارتفع مكان الأمير بين الناس ؛ لأن للناس إحساساً عجيباً بما سيحدث ، فانضوى تحت لوائه عدد كبير من أولئك الذين لم يذهبوا إلى

المعسكر الآخر عن إخلاص وتحمس . ولكن مع هذا كله ، وبرغم هذا كله ، لا يزال هناك عصابة قوية تعمل فى الخفاء لكى يخذل ولى العهد ، وينتصر الأمير « آنى » . والأمير نفسه أزهد الناس كما قلت لك فى الملك والعرش . ولكن رفيقته فى الحياة ترى فى هذا الأمر رأياً آخر . والآن يا سنوحى ، أترى أن عقلك الصعيدى قد ألم بحقيقة الموقف فى عاصمتنا السعيدة ؛ أم ترانى مضطراً لأن أطعمك الجرذان لكى يتفتق ذهنك ويستنير عقلك ؟

— لقد فهمت الموقف ، ولا حاجة بى إلى طعامك ، ولا أظننى سعيداً بما فهمت .

— أجل إنك لست سعيداً بهذه الحال ، إنك توشك أن تصبح من عصابة الأميرة « نورا » إن صدق ظنى . .

اضطربت عند ما ألقى علىّ هذه العبارة ، وصحت دون أن أفكر : « كلا إننى لست من أفراد هذه العصابة أو تلك . »

— إنك تخطىء كثيراً إذا كنت تترك نفسك تنزلق وأنت لا تدرى ، فلا تلبث أن ترى نفسك قد تورطت فى إحدى الناحيتين فجأة ، دون أن تحسب لذلك حساباً . إن للأميرة

« نورا » شقيقة فتانة الجمال . حتى ليقال إن رع الإله الخالق لم يصنع بيديه شيئاً أجمل ولا أبدع ولا أروع منها ، هذا على فرض أن رع قد خلق الليبيين كما خلق المصريين .

— وما خطب هذه الأميرة ؟

— إن اسمها بتسى

— وماذا علينا أن يكون اسمها بتسى ، وأن يكون لها كل هذا الجمال ؟

— إن هذا أهم شيء أريد أن أقوله لك . إن الأميرة نورا ذات قدرة عجيبة ، وبراعة مدهشة ، ولقد أرادت أن تضمن العرش لزوجها وإلا فلزوج أختها ، فأرادت أن يكون سينو فى مثل جرأة أخيه فيتزوج من « بتسى » البارعة الجمال . فإن فاتها أن تغدو ملكة ، فلن يفوتها أن تكون الشقيقة الكبرى للملكة .

« ومن العجيب أن سينوسرت الجاف الخشن الفظ مغرم بالأميرة بتسى . ولكنه مغرم بها غرام الحمار بين ذوى الجانب الخشن ، يريد أن يتخذها جارية ومتعة ، لا ملكة وزوجاً . وهو لا يزال يطمع نفسه بأن يتحقق هذا الأمر فى يوم من الأيام . .

« ولكن هيهات أن ترضى الشقيقة الكبرى بمثل هذا المصير

لأختها الحسناء . وأكبر ظنى أنها اليوم — وقد يأست من أن تكون أختها زوجاً للأمير سينو ، تريد أن تكرس جهودها فى أن يصبح آنى ولى العهد ، أراد ذلك أم لم يرد . وتريد أن تفتش لأختها الحسناء عن زوج يعاونها ويشد أزرها فى نيل مرامها . . وقد سمعت بشاب من نبلاء الصعيد ، قد أقبل من الجنوب ، اشتهر بالقوة والنجدة ، وبشيء غير قليل من السذاجة . ويدعى سنوحى . فقدرت أنه أصلح الناس لأن يُمَنَّى بزواج الأميرة الصغيرة . وقدرت الثمن الذى لا بد له أن يدفعه لهذا الزواج ، وأظنك تستطيع أن تدرك هذا الثمن ، فهو أن تضع جسدك وروحك ، وعدنك وقوتك ، وسرك وجهرك تحت تصرف الأميرة الليبية زوجة الأمير آنى . ولو أفضى الأمر لأن تناصب الأمير سينوسرت العداء !

« إن سينو بعيد عن العاصمة الآن . وهذا هو السبب الأول فى إلحاقك بحاشية الأمير آنى . والسبب الثانى أن الملك واثق من إخلاص سنوحى بن سنوحى . ويهمه أن يكون فى قصر الأمير أحد المخلصين .

« ذلك هو الموقف ، الذى أردت منك أن تلم به ، وأن

تجعله موضع تفكيرك فى الأيام المقبلة . . فإذا كان فى هذا ما يؤرق طرفك الصعيدى ، فإن السهاد أقل ما يصيبك من حياة القصور . . . .

« لقد صدق القدماء حين قالوا : فتش عن المرأة . »

— وأنت يا يونس أما تخشى شيئاً ؟

— لقد استترت وراء الشعر ، واتخذته رداءً ووقاية ، أبصر من ورائه كل شيء دون أن أثير ريبة أو أغضب أحداً . . .

« اغد على مرة أخرى بعد أن تعود من صيدك ، غداً أو بعد غد ، فربما كان لدى حديث آخر أدلى به إليك . إنى أحس كأن فى الجو حادثاً تحاك خيوطه الليلة . وهو من الأحداث الجليلة . . . »

— ٥ —

لم أنم ليلتى تلك إلاغراراً . وكان السهد يطول أحيانا حتى أضطر إلى النهوض من مضجعى والتمشى فى فناء الدار قليلا ثم أعودإلى مضجعىأستعطف النعاس . إن هذا الانتقال الفجائى ، من سذاجة الريف ، إلى سفسطة المدن ، ومن بساطة القرويين ، إلى خبث المدنيين . ومن الحياة السهلة الهادئة إلى هذا العيش المعقد — الذى لا تستطيع أن تخطو فيه خطوة وأنت آمن مطمئن — كان شديد الوقع على النفس . فأين أبى الشيخ الجليل ونصائحه التى كان يظن أنها تفتح أمامى كل مغلق؟ لـكى يرى قلة غنائها فى هذه العاصمة العجيبة . فشتان بين طيبة عاصمة الجنوب و بين فاهرة القطرين . إن طيبة لم يكن فيها غير الجنوبيين . ولم يكن بها من الشرور إلا شرورهم . وهى كجرائم الأطفال خالية من كل تعقيد والتواء . . . هذ العاصمة العظيمة التى اجتمع فيهاالناس مو جميع الأقطار . واحتوت جميع الشرور على اختلاف ضروبها وأشكالها .

ألعلى أخطأت إذ تركت أهلى وعشيرتى ، وغادرت عيش

الهدوء والدعة ، إلى هذه الحياة التى امتلأت صخباً وضجيجاً ، والتى لا تجرى فيها الأمور إلا معقدة ملتوية ؟ إن النكوص على الأعقاب الآن ضرب من المحال . فهل ترانى على مدى الأيام أستطيع أن أسير فى هـذه المسالك الوعرة ، وأن أجتنب ما يعترضنى من الأشواك ، والشراك المنصوبة ؟ لعلى أستطيع ذلك لو أن ظروف الحياة سارت على مهل ، ومكنتنى بالتدريج من أن أعتاد هذا العيش شيئاً فشيئا ، ، وأنال بالتجربة من العلم ما يمكننى من أن أخترق الحجب ببصرى ، وأعرف ما قد كمن وراء الظواهر الخلابة والابتسامات العريضة . ولكن الحوادث لم تمهلنى . بل تتابعت فى سرعة واطراد ومفاجأة ، لم يكن بد من أن تجرفنى وأن تقذف بى بعيداً .

لقد أرادت المقادير بى خيراً إذ أتاحت لى صداقة هذا الشاعر العجيب يونس . لم تكد عينى أن تقع عليه ، وهو قائم بين يدى الملك ينشده من شعره العذب الجميل ، حتى أحسست بعطف شديد يجذبنى إليه . ومن حسن حظى أن توطدت بيننا المودة بهذه السرعة . وما زادنى مضى الأيام إلا إعجاباً بهذا الرجل، وعجباً من قدرته الغريبة على الإحاطة بما يجرى فى القصور ،

وما يدبر فى الخفاء . . . كان يعيش منفرداً فى داره المنفردة ليس معه سوى عدد يسير من الخدم . وهو يزعم أن هذه الوحدة لازمة أشد اللزوم للشاعر المبتكر ، فإذا جاءه الإلهام ليلا أو نهاراً كان قادرا على استقباله وإكرام وفادته والاحتفاظ به. لا يشغله عن ذلك أهل ولا ولد . . . تلك دعواه ، ولكنه على هذا كله ، كثير الاتصال بعدد غير قليل من الناس ، ولا يكاد ركن فى قصر من القصور أن يخلو من صديق له يثق به و يأتمنه على سره .

ولكنى رغم صداقتى ليونس ، التى ازدادت على الأيام قوة ومتانة ، لم أكن لأركن إليـه فى كل أمر . وأن أستشيره فى كل ما يعرض لى من شئون الحياة . . إن قلبى هو الذى يحس ويخفق ، ووجدانى هو الذى يثور ويضطرب ، فكيف أستطيع أن ألجأ إلى شخص آخر . لكى يمسك بيدى ، ويهدينى السبيل ، وقلبه لا يحس كما أحس ، ولا يضطرب كما أضطرب ؟ وفوق هذا كله لا بد لى من الاعتراف بأنى ألفت الاعتداد بنفسى . وهى نفس لم تكن تخلو من الزهو والغرور .

وهكذا ترانى أيها القارىء ، لم أنتفع بصداقة يونس الانتفاع

الكامل . ولم أتحدث إليه عن شغفي «ببتسى» ولعله كان مدركا لحقيقة حالى . ولكن كان من اللياقة بحيث لم يحاول أن يهتك الستر عن هيكل قلبي لكي يعرف الإله المعبود الذى تبوأ عرشه فيه

* * *

لقد طلع الفجر ، ولم أصب من النوم فى ليلتى هذه إلا حظاً يسيراً . ولكن الشباب والفتوة فى غنى عن النوم الكثير . ولهذا نهضت من مرقدى فى غير قليل من النشاط ، وارتديت ثيابى ، وأخذت فى إعداد قوسى وملأت كنانتى بالسهام . . . وجاء الخادم فقدم لى طعام الإفطار . فتناولته . ولم أكد أفرغ منه حتى حضر رسول الأمير يدعونى إلى لقائه .

فى تلك اللحظة كان ظلام الليل قد انهزم تماما . وقد احمر وجه الأفق الشرقى . وأخذت المدينة تتحرك ، وتدب فيها الحياة. ووصلت إلى قصر الأمير آنى . فوجدته واقفاً بالباب ومعه طائفة من أتباعه وحاشيته ؛ فلم يكد يرانى حتى أخذ يلاطفنى .

— أترى ليل الشمال أهدأ وأعذبُ أم ليل الجنوب ؟

— كل الليالى فى جوار الأمير طيبة

— ليس هذا بجواب صريح على سؤالى . ولكنى أعفيك

من بقية الرد : إنك ستصحبنى الآن إلى المستنقعات ، فان هناك طائفة عظيمة من البط تناشدنا أن نذهب اصيدها ، إن هذا الطراز من الصيد هو أحب الأشياء إلى نفسى . وأخشى أن والدى العزيز وشقيقى « سينو » ينظران إلى هذه الرياضة كأنها ضرب من عبث الصبيان . إن أمينى لا يرضيه إلا أن يخرج إلى الفلاة ، ويفتش فيها عن أسد من أضرى الأسود ؛ ثم لا يزال ينازله ويواثبه ، حتى تنفد قوى الأسد ، ويزأر بشدة احتجاجاً على هذه المبارزة التى لا تنطبق على الأصول المعروفة ، والأوضاع التقليدية . وكثيراً ما عاد أمينى من صيده ، يقود أسده حيا .

« وليس بإنسان فى نظر جلالته من لم يصد أسداً واحداً على الأقل . ولهذا تراه لا يستطيع أن يغفر لابن أخته آنى هذه الرياضات السهلة اليسيرة . . . والآن هلم بنا إلى الترعة فإن الزورق ينتظرنا هناك . »

سرنا إلى الطرف الغربى من المدينة حتى وصلنا الترعة ... فوجدنا الزورق والملاحين . وجلس الأمير فى مؤخرة الزورق ، وجلسنا كلنا من حوله . وأمسك الرجال بالمجاذيف العشرة ، فانطلق الزورق بسرعة يشق سطح الماء . .

وقال الأمير : « كنت أود أن تكون الأميرة معنا ، ولكنى أخشى أن « نورا » لا تجد لذة فى هذه الساعات التى تقضيها وسط المستنقعات . ولا ترى معنى فى أن نصيد عدداً قليلا من البط بالسهام أو بالنيازك . مع أن رجال القصر يصيدون منه المئات بشراكهم وأساليبهم الخاصة . و يحضرونه إلى المنزل دون أن نسعى إليه ! »

— لعل الأميرة تنزع إلى الوجهة العملية فى كل شىء .

— إن الصيد والرياضة عندها ضرب من العبث؛ وهى تفضل أن تقضى الوقت فى قصرها ، تستطلع الأنباء وتتحدث إلى الوصيفات . وتشرف على تجميل الحجر وزينتها . وفى هذا كله ما يشغل المرأة . ولكن نحن أبناء الأمراء والنبلاء ، ما الذى يشغلنا إذا لم يكن هناك حرب أو غزو؟ لولا الرياضة والصيد لكانت حياتنا ثقيلة المحمل ، قائمة على السأم . . . ولكن ما هذا ؟ . . . إن فى قاع الترعة شيئاً يتحرك . أوقفوا المجاذيف .

وقف التجذيف فجأة . . وأخذ الزورق ينزلق بخرير هادئ على صفحة الماء . لقد صدق ظن الأمير ، إن الحيوان الذى كان

يسبح تحت الماء ، قد اقترب من السطح . وها هى جثته الضخمة تبدو فى الماء . إنه عجل البحر ، وقد امتد رأسه الطويل فوق السطح ، وأما أكثر الجثة فلا يزال مغموراً بالماء . فى تلك اللحظة انطلقت من يد الأمير فجأة حربة ذات نصل غليظ ، فاستقرت بين كتفى العجل . فلم يلبث أن غاص تحت سطح الماء ، واندفع يسبح البقية الباقية من عمره . وهو يجتذب الحبل المعلق فى آخر الحربة . . . وكان حبلا من الكتان المتين ، طوله مائة دراع . ولم يزل يجذبه فى اندفاعه بعنف ، حتى لم يكد يبقى من الحبل شىء . وأمسك أحد الغلمان بطرف الحبل لكى يقذف بنفسه فى الماء ، وراء الفريسة . ولكن لم يكن هنالك داع لهذا . فان الجذب قد انقطع . وصار من الواضح أن البهيمة باتت لا حراك بها . فأخذ الغلمان يجتذبونها شيئاً فشيئاً ، و بعد قليل ظهرت الجثة إلى جوار القارب ، والنصل مثبت فى جسدها . ثم لم تلبث أن رفعت إلى سطح الزورق .

فاتجهت ورجال الحاشية إلى الأمير بالتهنئة، على هذه الإصابة المدهشة ! وقد كان بيننا و بين العجل عشرون ذراعاً . ولكن الأمير لم يجد فى هذا ما يبعث على الفخر . واكتفى بأن قال :

« من حسن الحظ أنى كافر بالشؤم والتشاؤم . و إلا لأحزننى أن يكون أول صيد أصيده هذا العجل . وكيف يعد من الشؤم أن يكون أول رزقك كبيراً ضخماً ؟ إن المتشائمين قوم ضعاف الحجة أبداً . »

ابتسمنا كلنا من تفاؤل الأمير ، وودت أنا بعد ذلك لو أنه انتبه لصوت النذير ، ولكن فى تلك الساعة الجميلة لم يكن على ظهر الزورق من يريد أن يفكر فى المستقبل ، أو يفسد جمال اليوم بتوقع الشر .

لم نلبث أن بلغ بنا الزورق إلى موضع ، انتقلنا فيه من الترعة الكبيرة إلى قناة صغيرة ، عرضها لا يزيد على عشرة أذرع . يوشك أن لا يكون فيها متسع إلا للزورق والمجاذيف التى تتحرك عن جانبيه . وكثيراً ما اشتبك المجذاف بأغصان الصفصاف المتدلية على صفحة الماء . أو بأصول شجرة من الطلح ، قد مدت جذورها الملتوية إلى داخل القناة . وفى أثناء انزلاقنا على سطح القناة الناعم الأملس ، ارتج بنا الزورق فجأة ، واختل توزاننا قليلا . فبهتنا لحظة ، ثم ضحكنا ، لأننا رأينا المخلوق الذى سبب صدمتنا يزحف إلى الشاطىء يكسوه الخزى المخزى ،

والخجل المخجل . لا أظن أن فى الكائنات جميعاً أبلد من التمساح ولا فى تماسيح الأرض أبلد من تماسيح قطرنا العزيز . ولا شك أن تمساح اليوم من أبلدها جميعاً فلقد كان قابعاً فى طريقنا ، تأبى عليه بلادته أن يتحرك ذات اليمين أو ذات الشمال . . حتى صدمه زورقنا صدمة أطارت صوابه ، إن كان له صواب .

ومضينا دون أن نحفل به ، فلم نلبث أن وصلنا إلى المستنقعات؛ فإذا أمامنا مساحة عظيمة من الماء لا يبلغ البصر مداها . و إذا قلت مساحة من الماء ، فليس معنى ذلك أننا نرى الماء فيها دائماً . بل الحقيقة أن أقل شىء تقع عليه العين منها هو الماء . فبرغم وجوده فى كل مكان ، فإن صفحته مغطاة — عدا قليلا من المسالك والمسارب — يكسوها ورق النيلوفر ، و يخرج منها زهر البشنين الجميل ، كأنه نجم يضىء ، وقد نبت وسط الماء حشد هائل من البردى ، قد ارتفع ساقه ورأسه فوق سطح الماء ، وغاصت أصوله فى القاع . وهو يبدو مجتمعاً ملتفاً فى صورة جزر صغيرة ، و يحتل من المستنقعات معظمها ، تاركاً مساحات قليلة من الماء تجرى فيها الزوارق . وأخرى يرتفع فيها الثرى قليلا عن سطح الماء ، فتنمو فوقها طائفة من السنط والطلح والنخيل .

وهذه بمثابة جزر حقيقية ، قد انحسر عنها الماء تماماً . ومن الممكن أن تنزل بها لتستريح وتتناول طعام الغداء .

ولم يمض وقت طويل حتى بلغنا جزيرة من هذا الطراز ، فألقينا المراسى هناك . إذ كان من المتعذر على الزورق الكبير أن يجرى وسط المستنقعات ، حيث الماء ضحل ، والمسالك ضيقة. ولقد نظرت من الزورق إلى هذه الجزيرة ؛ فإذا هى ليست كسائر الجزر ؛ بل كانت عبارة عن بستان صغير ، تتوسطه خميلة ظليلة، وبها مقاعد ومتكآت .

هنا ركب الأمير زورقاً صغيراً جداً لا يكاد يتسع لأكثر من اثنين ؛ ودعانى لأن أركب معه ، وتركنا سائر الحاشية وراءنا ، فلم نصطحب غير كلب سلوقى . وكان بالجزيرة عدد من تلك الزوارق الصغيرة جداً المصنوعة من شجر البردى ، التى تستخدم فى الشمال كثيراً ، وهى لا تتسع إلا لشخص واحد . ولكن الأمير لا يحب استخدامها ، لأنها كثيراً ما تضطرب براكبها لأتفه الأسباب . أما الزورق الصغير الذى ركبناه فمصنوع من جذع طلحة غليظة بعد تجويفه وتقويره وهو كسائر الزوارق الصغيرة ، لا يدفع بالمجاذيف الأفقية ، التى لا تتسع لها

المستنقعات ، بل يدفع بمجذاف واحد رأسى ، يمسكه المرء وهو جالس فى مؤخرة الزورق ، وهو يؤدى به عمل المجذاف والدفة فى آن واحد .

وقد جلست فى المؤخرة، وتوليت إدارة الزورق وتوجيهه. ووقف الأمير فى الوسط ومعه عدته من السهام والنيازك . وأقعى السلوقى أمامه فى مقدمة الزورق . وهو منتبه للصيد ولما يسقطه الأمير منه .

ونظر الأمير إلىّ وقال : « إن للمستنقعات فى إقليمنا هذا سحراً وجمالا لا تجد له نظيرا إلا فى الفيوم أو النواحى المتطرفة من مصر السفلى . »

قلت : « إن البرك قليلة جدا عندنا . وهذه أول مرة أنعم فيها بهذه الرياضة المنعشة فى هذه المساحة الهائلة من الماء والنبات . »

— إننى أفضل هذه الرياضة على صيد الصحراء . وأسعد أوقاتى الساعات التى أقضيها هنا وسط المستنقعات ؟

— إنى أرى جموعا عظيمة من الطير ، فى أحجام وألوان وأشكال متعددة فهل يفضّل الأمير بعضها على بعض .

— أكره أن أصيد الطير النادر ؛ وأبغض أن أكون سبباً فى فناء طير يمتاز بروقه أو جمال ريشه ، أو حسن صوته . اللهم

إلا أن يكون عددها كبيراً جداً ، ولهذا ترانى أفضل فى الصيد النيازك على السهام . . إن هذه النيازك التى تراها قد صنعت باتقان عظيم ، فكل منها مصنوع من الخشب النادر ، وقد قطعت بدقة وإحكام فى الطول والعرض والسمك ، ثم صهرت على النار لكى تجف ، ولكى يتسنى للصانع أن يلوى يدها بالقدر الضرورى تماماً .

« وأنا أفضل النيازك الخفيفة لأنها قلما تقتل الطير ، بل تصيبه فيقع حيا ، ثم يرتد النيزك فيقع تحت أقدام الرامى ، هل تعرف رمى النيزك ؟ »

— لم تتح لى فرصة للرماية بهذه الآلة .

— لا بد من أن نتعلم هذا الفن . فهو تسلية جميله . إننى أستطيع أن أصيب بها على بعد الخمسين أو الستين ذراعاً . بل قد أبلغ المائة أحيانا .

فى تلك اللحظة لاح البط من كل جانب ، وانطلقت نيازك الأمير يميناً وشمالا . فلم تخب له رميـة واحدة . وانطلق السلوقى والأمير يدعوه حوفو — وراء كل رمية ، فيعود بالبطة ، فيتناولها منــه الأمير ، ثم يناولنى إياها ، فإذا كانت فيها بقية من الحياة ربطتها فى الحبل إلى جانب

أخواتها . وإن كانت ميتة ألقيت بها وسط الزورق .

***

بلغت الشمس وسط السماء ، ثم أخذت تنحدر نحو الغرب . وقد امتلأ الزورق صيداً . فأمر الأمير بأن نعود إلى الجزيرة ؛ فالتمست قطعة من المستنقع قد اتسعت فيها رقعة الماء ، واستطعت أن أدير الزورق فيها نحو الشرق . وأخذت أجذف والجوع يحرك ذراعى ، فانطلق الزورق كالسهم . فلم نلبث أن بلغنا الجزيرة واتخذنا مكاننا من الخميلة . . ولم يمض وقت طويل حتى كنت ألتهم غداء شهيا يتألف من شواء عجل البحر ، وسمك طرى ، وبط محشو . وقد استعنت على التهام هذا كله بأقداح من النبيذ الفاخر ، لا أظن أنى ذقت له نظيرا فى حياتى . . . لقد أخطأ يونس فان حياة القصور لا تخلو من الطيبات . ولئن كانت طيباتها من هذا الطراز فأنى مستعد لأن أحتمل منغصاتها ، كائنة ما كانت ... فما أجمل الحياة ، وما أبدع السكون ، وما أعذب نغمات الطير الذى لم ينقطع تغريده كأنه شرب مما شربنا ، وطرب كما طربنا . فى تلك الساعة الرائعة من ذا الذى يبلغ به الحمق أن يفكر فى منغصات الحياة ؛ أو فى مفاجآت الأقدار ؟

فى تلك الساعة سمعت أصواتاً تشق سكون المستنقع ، ولم تمض لحظة حتى بدا زورق فخم يقل الأميرة « نورا » وعدداً من وصيفاتها . لا أظن أن الأمير كان يتوقع هذه الزيارة . ولكنه لم يبد دهشة أو حيرة . بل نهض ، وأخذ بيد زوجه ، وهى تنزل من الزورق ، فسارت إلى جانبه ، وحيتنا بتحية جامدة ، ووجهها شاحب كعادته ، وعيناها تلتهبان كعادتهما .

ولم تكد تستقر على الأريكة حتى أمرتنا جميعاً أن نعود إلى الزوارق وأن نبتعد عن الجزيرة . فأطعنا الأمر فوراً . ولا شك أن الأميرة تريد أن تسر إلى زوجها حديثاً خطيراً . ولم تطق الانتظار ريثما يعود . فأقبلت إلينا فى سرعة هائلة لأنى رأيت رجال زورقها فى حالة إعياء ظاهر .

ابتعدنا جميعاً عن الجزيرة ، لكى تستطيع الأميرة وزوجها أن يتهامسا كما يشاءان ، ولم يبق معهما فى الجزيرة من الأحياء شىء سوى « خوفو » السلوقى ، والبط الذى اصطاده الأمير حياً . ومع هذا فإن للبط أحياناً آذاناً تعى وتفهم ! وقد علمنا من سياق الحوادث التالية فحوى الحديث الذى دار بين الزوجين .

إن الملك « أمينى » قد أعلن للناس جميعاً أن ولى عهده هو

الأمير «سينو» و بعث الرسل إلى جميع البلاد لكى تدعو الحكام والنبلاء إلى احتفال عظيم لتكريم الأمير؛ وأرسلت بعثة خاصة إلى الجنوب لاستدعاء الأمير من أرض «واوات» ... وغير ذلك من الأنباء التى أقضت مضجع الأميرة وعصابتها . وقد رأت آمالها توشك أن تنهار فأسرعت تسر الحديث إلى زوجها ، ولا شك أنها لم تكن أفضل الساعات لمفاتحة الأمير فى مثل هذا الأمر الخطير . فان هذا هو اليوم الذى يبدو فيه له أن السعادة كل السعادة فى البعد عن الملك ، وعن العرش ، وعن التاج الشمالى والجنوبى على السواء .

ولكنى لا أشك فى أنه بذل جهداً كبيراً لكى يجارى الأميرة و يلاطفها . . وقد مرت ساعات ونحن ننتظر بعيداً عن الجزيرة، ثم نودى علينا أن نقترب، فاقتربنا ، فدعانى الأمير الى الجزيرة . فنزلت وحدى . وابتعد الزورق مرة أخرى .

وهناك فى وسط تلك الخميلة ، وسط حفيف الشجر ، وتغريد الطيور ،جعلتنى الأميرة أقسم بالآلهة جميعاً على الوفاء لها ، ولزوجها، وأن أأتمر بأمرهما ، وأن أنصرهما وأن أكون لهما فى السراء والضراء خادماً أميناً وصديقاً مخلصاً . . . »

— ٦ —

انقضت بعد ذلك ثلاثة أيام ، لم تهدأ العاصمة فيها لحظة ، وكان القصر الملكى بوجه خاص فى حركة لا تنقطع ، وكنت تلك الأيام فى معية الأمير ، أصاحبه أينما ذهب ، ولم ألاحظ فى سلوكه أو مظهره شيئاً يلفت النظر ، اللهم إلا اليوم الثالث ؛ فلقد صاحبته إلى القصر ، حيث دار بينه وبين الملك حديث طويل . ثم خرج بعد ذلك ، وفى وجهه شحوب ووجوم لم أكن أعهدهما فيه .

وتاقت نفسى لأن أدرك شيئاً مما يدور خلف تلك الجدران والأستار ، وأنا أعلم أن كثيراً مما يجرى معروف لطائفة غير قليلة من رجال القصر ونسائه . ولكن أنى لمثلى — وأنا حديث العهد بالدار وسكانها — أن يكون لى سبيل إلى تلك الأسرار ؟ ثم فكرت فى يونس ، وأنا عائد إلى دارى قبيل الغروب . فلم أكد أبلغها حتى ألفيته لدى الباب ، ومعه شخص أسمر اللون ، قصير القامة ، تبدو فى عضلات جسمه قوة غير عادية .

— هذا صديقى « صعب » وهو صاحب نجواى . وقد رآك

منذ ثلاثة أيام وأنت تذهب إلى الصيد مع الأمير ، وأنت ضاحك مستبشر ، ثم تعود وأنت ساكت واجم .

— إنك من غير شك قد علمته الفضول ، واستراق السمع ، فوَيل لكما من إله السموات !

— على ذكر السموات ، أريد أن تصاحبنا إلى الضفة الشرقية ، فإن لى هناك كوخا صغيراً يطل على النيل من فوق مرتفع من الأرض . ومن هناك ننظر إلى السماء جهة الغرب لكى نرى اقتراب الزهرة من الهلال . إن هذا أجمل منظر فى السماء . وهو أجمل ما يكون حين تنظر إليه من الضفة الشرقية ، ودونه النيل يجرى فى هدوء وسكون . وقد بسط أمامك صفحة ملساء ، يبدو فيها الهلال مقلوباً والزهرة من تحته . هلم قبل أن تغرب الشمس ، فالزورق فى انتظارنا .

لم نلبث أن بلغنا الضفة الشرقية ، وتسلقنا قليلا حتى وصلنا إلى ما سماه يونس « كوخا » ، وهو دار صغيرة جميلة ، ذات شرفة وعمد ، إذا جلستْ فيها استطعت أن تقرأ الجو والمغرب والنيل ، كأنها صفحات من سفر جليل .

كان المساء عذباً والجو شفافاً ، وقد ازدادت السماء زرقة

باقتراب الغروب . ولم تلبث الشمس أن دنت من الأفق دنواً شديداً ، وارتفع الاحمرار فى السماء وانعكس على وجه الماء .

ولكن الذى بهرنا لم يكن منظر الشمس الغاربة ، ولا النيل الهادئ الوادع ، ولا الكروان يملأ السماء تغريداً و إطراباً ، ولا الهواء المعطر بأريج الزهر . بل منظر الهلال وقد استقل وسط سماء المغرب كأنه زورق يسبح ، وقاعدته نحو الأرض ، ورأسه وذنبه مرتفعان ، كأنه قوس عظيم من الفضة مفتوح إلى أعلى ، ومن فوقه الزهرة على مسافة تقرب من الذراع ، تلمع وتتوهج ، وترقص وترتعد ، كأنها أكرة من الزئبق .

ثم غابت الشمس وأظلم الكون ، واسودت السماء قليلا ، فازداد الهلال لمعاناً ، وازدادت الزهرة توهجاً وخفقاناً . واستبد الهلال والكوكب بملك السماء ، حتى تخال أنهما يتزعمان الكون كله . فليس لنجم آخر ضياء يرى ، ولا للأجرام وجود يحس . فى تلك الساعة رُكِّزت العيون فى ذلك الركن الغربى من السماء ، تحدق فى الزورق الفضى اللامع ، وفى الكوكب الدرى الذى يبدو كأنه يريد أن ينقض إلى قاع الزورق ، فتمسكه يد خفية .

مضى وقت طويل ونحن الثلاثة نتأمل هذا المنظر ، ونشربه بأعيننا وأرواحنا ، حتى ارتوينا أوكدنا أن نرتوى . عند ذلك انحلت عقدة لساننا وأخذنا نتساءل عن السر فيما انطوى عليه هذا المنظر السماوى من سحر وجاذبية وشعر ! إن الهلال يلمع فى الغروب دائماً فى الأيام الأولى من كل شهر . وهو هو دائماً الزورق الفضى السابح فى السماء ، والزهرة رقاصة الفلك ، تبدو تارة فى الفجر وطورا فى المساء . فليس ببدع أن نرى الهلال والزهرة معاً يسبحان فى سماء المغرب . فما الذى بهرنا فى منظر هذا المساء؟

قال صعب : « إن سحر هذا المنظر يرجع إلى الاقتراب الشديد بين جرمين لامعينَ ، حتى ليوشكان أن يتعانقا ، وهما لو تعانقا لبطل سحرهما ، وضاعت روعتهما . لأن اختفاء الزهرة وراء القمر يسلب هذا المنظر نصف بهجته ، وكل روعته .

« فسر الفتنة التى نشاهدها إذن ، هو الاقتراب ، دون الاقتران . . . وما أشبه هذا بسحر منظر الخطيبين الجميلين ، قبل أن يفسده القران . »

ضحكنا من هذا التشبيه . وتساءلنا إذا حدث القران بين

الزوجين فأيهما يختفى : الرجل أم المرأة : الهلال أم الزهرة ؟

قال يونس : « لا أظن أن مجرد اقتراب الهلال من الزهرة هو روعة هـذا المنظر . بل إن السر يرجع إلى التناسب العجيب بين موضع كل منهما وحجم كل منهما بالنسبة للآخر . فإن زورق الهلال منبسط انبساطاً أفقياً ، كأنه يسبح حقيقة فوق سطح أزرق أملس . والزهرة منه فى مكان الوسط تماما . ولكنها تبعد عنه قدر ذراع . وهذا البعد القليل هو أيضاً سر من أسرار جمال هذا المنظر . فلو أنها ابتعدت عن الهلال أكثر من هذا لفقد المنظر وحدته وانسجامه ، ولو أنها اقتربت أكثر من هذا ، لفقد كل من الاثنين وحدته ، وأوشك أن يندمج فى الآخر . . وفوق هذا فأنتما أدرى بالخطر العظيم فى أن يقترب كائن شرير مثل الهلال بمن كان مثل الزهرة على جانب غير كبير من الذمة وكرم الأخلاق » .

وهكذا لم يكن بد من أن ينتهى الشرح الفنى الدقيق بنكتة على مألوف عادة يونس . أما أنا فقد خالفتهما فى رأيهما . وقلت : « إن الذى يسحرنا فى هذا المنظر ، هو ما يثيره فى نفوسنا من الدهشة لغرابته ، وندرته . وفى السماء — بل وفى الأرض أيضاً —

(هنا تمثلت بتسى) ما هو أجمل من هذا المنظر وأروع ، فالبدر وقت تمامه ، ونهر المجرة تكرع فيه النجوم ، والشمس حين تبدو سافرة أو مقنعة وقت الغروب . هذا كله أروع من اجتماع الهلال والزهرة . ولكنها أشياء قد ألفناها وتعودناها . وهى تحدث فى كل حين . . أما هذا المنظر فانه نادر جداً . وكل شىء نادر يثير الدهشة و إن لم يزد إعجازاً أو روعة عما هو مألوف معروف .

« ولست أنسى الضجة الهائلة التى أثارها رجال الدين، وقت ظهور النجم ذى الذنب وكيف استغلت تلك الفرصة الفلكية العجيبة لاقتناص الثروة وابتزاز المال . »

قال صعب : « كأنما أخذوا على النجوم عهداً ألا تتخذ ذنباً مدى الدهر . و إذا كانت الدابة تتمتع بذنب طويل جثل فما أجدر النجوم أن يكون لها مطلق الحرية فى أن تتقلد ما شاءت من الأذناب . »

قال يونس : « إنى كلما تذكرت الضجة العظيمة التى أثارها الكهنة فى ذلك الوقت ، والمغانم الكثيرة التى غنموها يخيل إلى أنهم قد تسلقوا السماء فى جنح الليل وركبوا بأيديهم ذنباً لبعض النجوم . »

قال صعب : « إن رجال الدين خير من ينتهز الفرص ، وهم ليسوا من الغفلة بحيث يدعون ذلك الحادث الغريب يمر دون أن يملأوا خزائنهم ، ويوسعوا ضياعهم . . . »

قال يونس : « كان الملك أميني فى ذلك الوقت غائباً يحارب (الماثوى) . أما اليوم فهو من حسن الحظ بين أظهرنا ، وهو أعلم بالنجوم من كهنة رع . وقد بلغنى أنه اتفق وإياهم على أن يذيعوا بين الناس أن اجتماع الهلال والزهرة هذا فاتحة خير ، وفأل سعادة ، وأن البركات والنعم ستحل بأرضنا ولن تبرحها ما دمنا مقيمين على الإخلاص للعرش ، والإحسان للجار . . .

« وعلى ذكر الإحسان للجار ، أظن أن داخل الدار أدفأ من هذه الشرفة ، وقد أعددت لكم فى الحجرة قليلاً من الزاد ، فهلم بنا إليه . وهنالك نستطيع أن نتابع حديثنا فى هدوء وسكون ، فإن لدى حديثاً أريد أن أسره إليكما . . . »

لم تكن بى حاجة شديدة إلى الطعام . ولكنى أصبت من الجعة حظاً وافراً . ونظرت إلى يونس نظرة المُتلهف المتعطش . ولم أستطع أن أخفى ضجرى ففطن لما يجول بنفسى، وقال : « تكلم

ياسنوحى أمام صديقنا « صعب » فهو خير من تفتح لديه قلوب الأصدقاء . و يدلى عنده بالأسرار . »

قلت : « ليس لدى سر أدلى به ، ولكننى فى حيرة من أمرى ومما يجرى حولى . فهل من المألوف أن تكون القصور الملكية فى هرج ومرج ، وحركة لا تنقطع ليلا أو نهاراً . ولقد دهشت اليوم حين دعانى الأمير آنى وأسر إلى حديثاً عجيباً . سأ كتمه عن جميع الناس . ولكنى سأفضى به إليكما . وهو أنه ربما غادر العاصمة فجأة ، وآوى إلى مكان مجهول ، وطلب إلى أن أبقى فى المدينة لكى أسهر على خدمة زوجه وحريمه . فما عسى أن يكون وراء هذا كله من الأسرار ؟ أو لعل الأمور يسيرة سهلة ، وأنا الذى يخيل لى الوهم أنها تنطوى على سر غامض ومعنى خفى . »

قال يونس : « كلا إن الأمور لا تجرى فى سهولة ويسر . ونحن جميعاً فى أشد الحاجة ، لأن نأخذ حذرنا ، وأنت بوجه خاص ياسنوحى أجدرنا بأن تخطو بتؤدة ؟ فإن بلاط القصر ناعم أملس ، ولكن سرعان ماتنزلق عليه الأقدام . . . إننى لا علم لى بكل ما يجرى اليوم . ولكنى أقص عليكما ما بلغنى بالأمس . منذ ثلاثة أيام كما تعلمان أفشى الملك أمراً كان يعرفه الجميع ،

وهو أن « سينو » نجله الأكبر سيرث العرش من بعده .

« ولو وقف الأمر عند هذا لما كان هنالك شيء جديد ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا . فإن الملك فى مساء ذلك اليوم اجتمع ووزيره « هامان » اجتماعاً غير قصير ودار بين الاثنين حديث خطير ، أنقل إليكما ما بلغ مسامعى منه .

« قال الملك لهامان إنه لا يريد أن يكتفى بأن يعلن أن ابنه سينو هو ولى عهده ، دون سواه من أبنائه . بل يريد أن يخطو خطوة أبعد مدى . فان الدولة ما برحت فى حالة من التزعزع الخفى ، برغم ما يبدو فى ظاهر الأمور من الرسوخ والاطمئنان . ولا يزال بين الناس من يرى أنى أحق بولاية الملك ، ولا بد من اتخاذ خطوة حاسمة ، تقطع حبل الإرجاف ، وتقضى على كل اختلاف .

« وقال الملك : إنى قضيت زهرة العمر أحارب العدوان من الخارج ، والفتنة فى الداخل ، فلم أفز فى كلا الميدانين بنصر حاسم فها هو ولدى سينو لا يزال يشن على « واوات » حرباً لا هوادة فيها . وما أظن أجلاف الأسيويين إلا منتظرين ريثما تضمد جراحهم ثم يعاودون الكرة ، ويلجأون إلى العدوان مرة أخرى .

إن هؤلاء البدو لا سبيل إلى مسالمتهم ومهادنتهم . ولا يعرفون إلا أحد أمرين : إما أن تقهرهم أو يقهروك . . وإنى بعون الإله قاهرهم ما حييت ؛ وسأضمن لهم أن يكون على عرش مصر من يقهرهم دائما .

« ولكى أصل إلى بغيتى هذه ، لابد لى أن أركن إلى نظام داخلى مستتب ، وإلى حكام فى مقاطعاتنا الأربعين ، يلبون ندائى إذا ناديت ، وينجدوننى فى كل وقت . . . فهل حكام المقاطعات جميعاً من هذا الطراز ! إنك تعلم ياهامان أن بينهم عدداً غير قليل ممن لا يكفهم عن العدوان إلا خوف السلطان . ولهذا اضطررت لأن أشعرهم هذا الخوف دائما ، لأن قلوبهم لا يستميلها الحب ، ولا يصلحها الإحسان . . . والعدل بين الناس — تلك النعمة الجليلة التى تنعم فى ظلها الأمم بالسعادة والرخاء — شىء يؤذيهم ويضرهم ، لأنه يقص جناح أطماعهم ، ويكفكف غرب شهواتهم . .

« إن هذه الطائفة لا تلبث — إذا ما أزمة أزمت — أن تلقى بالحطب اليابس وسط اللهيب ، لكى تزيد النار اشتعالا واضطراما .

لهذا لا بد لى أتخذ إجراء حاسما ، يضمن استقرار الأمور بعد أن أنتقل من هذا العالم »

قال هامان : «طال عمر جلالتكم . فإن أمامكم السنين الطوال لكى تتمموا ما بدأتم وتتركوا لولدكم سينو دولة راسخة القواعد ثابتة العمد . »

قال الملك : « لا خير فى جيل لا يعيش إلا لنفسه ، ولا يفكر إلا فى يومه ؛ إن أبناء الجيل الواحد قد يبلغون أسمى الدرجات فى العلم ، والفن ، والسياسة ، والحرب ، ويسوسون بلادهم بالحكمة والعدل ، والبراعة النادرة . ولكن انهماكهم فى الحكم والإصلاح ، قد يلهيهم عن إعداد الجيل الذى يخلفهم ؛ وكأنما بهرتهم آثار أيديهم ، وثمار عقولهم ، والشعلة الهائلة التى أوقدوها ورفعوها إلى السماء ، حتى غفلوا عن أكبر الواجبات ، وأجلها خطراً ، فلم يعنوا بالذين سيخلفونهم ، وينهضون بالعبء من بعدهم ، فاذا البناء الضخم ينهار ، وليس هنالك من يمسكه . وإذا الشعلة العظيمة تخمد فلا تجد من يوقد جذوتها . وإذا المنشآت الجميلة تتهدم ، وليس من يقيم أركانها ، ويدعم بنيانها

« إن الأفراد تغتالها المنون ، بعد عمر طال أو قصر . ولكن الأمة

يجب أن تعيش وتخلد . وما أشد عذابنا نحن ، يوم نغدو فى عالم الأرواح ، محلقين مع الشمس فى السماء ثم ننظر إلى البناء الذى شيدناه فى عمرنا ، فنراه قد أسرع إليه الخراب والدمار ، لأننا عجزنا أو سهونا عن خلق جيل يخلفنا ، وينهض بالأمر من بعدنا .

« فدع المجاملة أيها الوزير ، إنك تدرك — كما أدرك — أننا لا نستطيع أن نقامر بهذه الشئون الجليلة . ونعرضها للخطر الجسيم . بأن ندع الأمور تجرى ، من غير رقابة أو عناية . حتى يدركنا الموت ، ولم نعد العدة لتأمين مصير هذه الأمة . »

قال الوزير : « الأمة بخير يا صاحب الجلالة ، فهى اليوم ترفل فى الرخاء والنعيم ، بفضل ما بذلته من جهود جبارة فى بسط العدل ورفع الظلم والضرب على أيدى العابثين . »

أراد هامان بالضرب على هذه النغمة ، التى يعرف أن الملك يحبها ، أن يلطف من حدة الموقف . لأنه كان يخشى أن يبادر الملك باتخاذ قرار عجل ، أو خطوة لم تنل حظها من التدبير والتفكير ، فهامان قبل كل شىء رجل الحيطة والتؤدة ، والنظر ذات اليمين وذات الشمال ، و إلى أعلى و إلى أسفل ، و إلى الأمام والخلف ، قبل أن يخطو خطوة واحدة .

ولكن الملك فى ذلك اليوم كان فى شغل عن المدح والإطراء ، وعن التقدير والتدبير : فقال : « لا تخدع نفسك يا هامان ، ولا تحاول أن تخدعنى . فانك تعلم ، كما أعلم ، أننا لم نقض على قوى الشر ، بل ألزمناها أن تستتر وتتوارى . وهى جديرة أن تظهر ، وأن ترفع رأسها مرة أخرى . إننا لم نخمد نيران الفتنة ، بل ألقينا عليها رمادا كثيرا ، وهى خليقة أن تعود إلى الالتهاب والاشتعال . إننا لم نمح الظالمين من الأرض . بل أكرهناهم على الاختفاء والانزواء . وهم حقيقون بأن يظلوا فى اختفائهم حتى تحين الفرصة المؤاتية . . .

« واليوم أريد أن أتخذ قرارين خطيرين ، ولا بد لنا أن نمضى فى تنفيذهما فورا . أولهما : أنى أريد منك أن تختار عددا من أبناء حكام الأقاليم ، ممن تجاوزوا سن الطفولة ، وأشرفوا على طور الرجولة . أريد أن ينزلوا جميعا فى القصور الملكية ، وأن يتلقوا العلم مع أبنائى وأبناء وزرائى وأعوانى . وعليك أن تصطفيهم وتختارهم ممن تتوسم فيهم النجابة والذكاء . فانى أريد أن أعدهم ، لمناصب الحجابة والوزارة ، وقيادة الجيش ، وتولى الحكم فى المقاطعات بعد آبائهم . . فما قولك فى هذا ؟ »

قال هامان : « رأى سديد أيها الملك . فاننا بهذا الاجراء ، نستطيع أن نولى شئون الدولة والأقاليم رجالا قد بلوناهم ووثقنا بهم . »

قال الملك : « حسنا . أما الأمر الثانى ، فانك تعلم أن فى كل من آنى وسينو عيوبا خطيرة ؛ فأما الأول فقد استبعدناه عن الدولة وسنقطعه ضيعة عظيمة ذات مستنقعات وجزر لكى ينعم فيها هو وزوجه الليبية الشقراء ... أما سينو فملك ابن ملك ، ولكنه شديد الضجر ، سريع الاتجاه إلى القوة ، والاحتكام إلى السلام . ولا شيء يصلح هذا العيب ، إلا أن أشركه معى فى الحكم بقية عمرى ، وأن أوليه الملك معى ، وأدر به على السياسة كما دربته على الحرب والقتال .

« هذه سنة جديدة ، أريد أن أسنها ، وسيدهش لها الناس أول الأمر ، ويعجبون من أن لهم ملكين ، لا ملكا واحدا. يدينون لهما جميعا بالولاء والطاعة . . .

« لقد فكرت فى هذا الأمر طويلا ، حين رأيت أن السنة القديمة التى كنا نسير عليها ، تعرض العرش والدولة لأزمات وشدائد ، من الممكن اتقاؤها ، فإن الفتنة النائمة سرعان ما ترفع

رأسها ، حين ترى الصولجان ينتقل من يد إلى يد ، والتاج يزول عن رأس إلى رأس . وكثيراً ما انتهز المرجفون فرصة الانتقال هذه ، لإثارة الشغب ، وإيقاد النيران . والسنة الجديدة التى أريد أن أسنها كفيلة بأن تقضى على الإرجاف . وأن تقطع حبل الفتن . . . لأن وفاة الملك لن تترك العرش خالياً . ولن تكون هنالك فترة يتولى فيها ملك جديد عرش بلاده ، لأن الملِك موجود ، والدولة قائمة دائمة . . . فماذا ترى ؟ »

أنصت الوزير إلى مولاه . وهو يدلى إليه بهذا الرأى الجديد ، ويشرح له هذه السنة المبتكرة . ولا شك أن الفكرة قد بهرت هامان بقوتها ، وأدهشته ببراعتها . . . إن الملِك بعد هذا العمر الطويل ، والجهاد العنيف المضنى ، لا يزال قوى العقل ، حاضر الذهن ؛ وما برح كما كان دائماً يرى الغرض الذى ينشده فى جلاء ووضوح ، ويتخذ إليه أقوم السبل وأنجع الوسائل . دون أن يبالى بالسنن القديمة ، والتقاليد الموروثة .

— وأطرق الوزير لحظة يفكر ثم قال : « إن للملك الرأى الأعلى ، والنظر الثاقب دائماً . وأنا فى حاجة إلى التروى والتدبر قبل أن أدلى لمولاى برأى فى هذا الانقلاب الخطير . »

قال الملك : « إن آفتك يا هامان هى هذا الافراط فى التروى والتفكير. فأنت مثل البقرة تطيل المضغ ساعات ، ثم تعود فتلوك ما مضغت . ما الذى تخشاه ؟ »

قال : « أليس هنالك من خطر ، فى أن نجابه الناس بأمر فيه خروج على ما اعتادوا ، وثورة على ما ألفوا . بعد أن جابهناهم بتنحية آنى ، وتولية سينوسرت ؟ »

قال الملك : « إن الناس لن تجد بأساً فى أن يتولى ابنى الملك ، وأنا بعد على قيد الحياة ، أهديه السبيل ، وأعرفه بالناس ، وأقيم بينه و بينهم أواصر الحب والولاء . أما حرمان آنى وراثة العرش ، فإن المخلصين من النبلاء والحكام ، سيغتبطون لهذا ، وسيرون فيه الخير ، وإذا كانت العناصر الشريرة تحس من خيبة الأمل ما يدفعها إلى ركوب الفتنة . و إثارة الشعب ، فما أخلقنا أن ننتهز الفرصة ، ونحطم رأس الأفعى ، ونقضى على الشر القضاء الأخير .

« إنى لا أريد أن أسرف فى إساءة الظن بالناس ، ولا أريد أن أتكلف الكشف عما كمن فى الضمائر . وما دام الناس يظهرون الولاء ، و يبدون المودة ؛ فإنى سأجزيهم الخير على ولائهم ، وأبدى لهم السرور والرضى . ومع أنى على يقين أن كثيراً

منهم يضمر غير الذى يظهر ، ويطوى خلاف الذى ينشر ، فإنى لن أتعمد نكأ الجرح أو كشف الغطاء عما فى الضمائر . لعل تكلف الولاء أن ينقلب مع الزمن ولاء ، ولعل التطبع أن يستحيل مع الأيام طبعاً .

« ولكن الويل كل الويل لمن يدبر الدسائس فى الخفاء ، ويطبخ الجرائم فى غسق الليل لكى يعاجلنا بها على غفلة منا ، ويسلب البلاد أمنها وراحتها . أولئك الذين لن تأخذنى فيهم رأفة ولا رحمة ، وأولئك الذين أحمد لهم فتنتهم ، لأنها مكنتنى من رقابهم ، وساعدتنى على أن أتقرب إلى الآلهة بسفك دمائهم . . .

« إنك تعلم يا هامان أنى منذ استقرت أمور هذه البلاد ، وسادها الأمن والهدوء أوثر اللين على العنف ، وأفضل أن تكون الطاعة والإخلاص عن حب ومودة ، بعد أن أحرزتهما عن خوف ورهبة . ويخيل لى أنى بهذه الوسيلة قد اكتسبت ولاء العدد الأكبر من الأشراف والنبلاء فى طول البلاد وعرضها . فهل تظن حقيقة أنه لا يزال بينهم من يسارع بالكيد لى ولأسرتى ؟ »

قال الوزير : « إننى واثق يا مولاى أن الأشراف وحكام

الأقاليم جميعاً ، لا تحدثهم اليوم نفسهم بشر يقومون به من تلقاءأنفسهم ، ولكن قد يكون بينهم من يساعد الشر إذا كان البادىء به شخصاً سواه .

قال الملك : « كأنك ترى أن هنالك عصابة أخرى ، قد تكون هى البادئة بالشر ! »

قال : « أجل . إنى إذا ضمنت لجلالتكم حكام الأقاليم ، فانى لا أستطيع أن أضمن إخلاص من فى القصر ، ولدى ما يحملنى على الظن بأن الأميرة الليبية من أبرع النساء فى حياكة الدسائس . وهى فوق هذا امرأة بعيدة الأطماع ، لا تريد أن تنسى أنها من سلالة عريقة فى الملك . »

قطب الملك جبينه ، وضغط بيمناه على صولجانه ضغطاً شديداً ، واتسعت حدقتاه حتى صارتا فى ضعف حجمهما . ثم قال وهو يعض على نواجذه : « أذكرتنى نساءالقصرولم أنسهن ، إن كيدهن عظيم . لأهون على الملك الجبار أن يحكم القطر من أقصاه إلى أقصاه ، فيدين له الناس جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، بل ويخضع الوحش والطير والدواب . . كل هذا أيسر وأهون عليه من أن يسوس القصر الذى يعيش فيه ، والأشخاص

العديدين ، الذين يستظلون بظله ، و يأكلون من فيض يديه .

« وهذه الأميرة الليبية ذات الوجه المقَشَّر ، ما مُلْكها هذا وما قومها ؟ إنْ هم إلا رعاة أجلاف ، يطعمون اليربوع ، و يشربون الماء الآسن ، وقد جعلها حمق آنى وسذاجته أميرة بعد أن كانت أمة ذليلة . إن زواجها من « آنى » قربها منى ، ولكن لتحترس هى ومن معها . فانى بعد خليق أن ألقى بها إلى السباع .

« لقد شغلنى يا هامان حكم القطر عن حكم القصر . وهى جريمة كثيراً ما ارتكبها الملوك من قبلى . ومع هذا ، فإنك تستطيع أن تترك أمر القصر لى . . . أما أنت فانى أريد منك أن تستعد لحفلة التتويج ، أريد منك أن تبعث الرسل إلى حكام الأقاليم ، وتدعوهم إلى أن يحضروا هنا بعد خمسين يوماً ، وابعث رسولاً إلى ميدان الحرب ، بأن يعجل ولدى سينو بالعودة . إنى أريد أن أرى حكام الأقاليم تركع بين يديه ، وهو جالس بجانبى على العرش . »

***

قال يونس : « ذلك أيها الاخوان الحادث الجليل ، الذى

يشغل العقول ، ويقض المضاجع ، ويملأ المدينة حركة ونشاطاً ...

قلت : « أواثق أنت من أن هذا كله قد حدث . »

— لقد يكون هنالك اختلاف يسير فى الألفاظ ، أما الحقائق التى تعبر عنها تلك الألفاظ ، فليس لدى ذرة من الشك فى أمرها .

— ولكن أتظن الأمير آنى يخرج على إرادة والده ، ويشترك فى تدبير مكيدة أو دسيسة ؟

— كلا . وهذا ما أريد أن أؤكده لك أنت يا سنوحى بوجه خاص ، إن آنى أزهد الناس فى الملك والوراثة ، وإذا كان هنالك دسيسة تدبر ، فإنه لن يسمح له بأن يطلع عليها . ولهذا السبب يريدون منه أن يسافر إلى إحدى الضياع البعيدة . وقد طلبوا منك أن تسهر على حماية زوجه . فاحذر ياسنوحى ، ولا تقامر على الجهة الخاسرة ، واذكر أن ولاءك للعرش مقدم على كل ولاء !

فى تلك اللحظة تذكرت اليمين التى أقسمتها فى المستنقعات . وأنها لم تكن يراد بها مجرد واجب يؤدى . فعجبت من أمرى ، وأخذت أفكر كيف يكون شأنى إذا تعارض ولائى للعرش

ولأسرة الأمير ! إنى لم أقسم يمين الولاء للملك ، ولكن هذا أمر مفروغ منه ، والولاء للملك فرض لا يحتاج إلى قسم ...

أخذت الهواجس تتلاعب بى . وأحس رفيقاى بأنى وجمت وجوماً شديداً . يوشك أن ينقلب إلى كآبة . فقدم لى صعب قدحاً من الجعة . وناول يونس طنبوره واستحلفه أن ينْشدنا آخر شعر ألفه ، على ألا يكون مدحا فى ملك أو أمير ، أو عشقاً فى جارية ..

قال يونس : « ويحك إذا لم نمدح أو نعشق ، فماذا نفعل ؟ »

— تستطيع أن تتفلسف . أو تصف النيل ، أو الخمر ، أو هذه السماء التى شاهدناها . ومثلك لا يُعييه الموضوع ...

— إنّ الإبداع فى موضوع جديد ليس من البراعة فى شىء ... وإنما البراعة أن تغنى لحنا جديداً فى موضوع قديم . ولكنى لا أريد أن يختم حديثنا هذا المساء بالغناء . وأظنك يا صعب تريد أن تلتمس تسلية لصديقنا سنوحى . غير أنى لا أريد منه أن يتسلى أو ينسى ، بل أريد أن يتذكر و يهتم .

وساد الصمت بعد ذلك ساعة . ثم قلت : « لنعد إلى الضفة الغربية . »

فنهضنا جميعاً . وأخذنا ننحدر فى بطء إلى حافة النهر ، وركبنا زورقنا ، وقد برد المساء . فلم نلبث أن بلغنا الشاطىء الغربى ..

وانطلق كل من يونس وصعب إلى داره ؛ وعدت إلى منزلى ، لأقضى ليلة أخرى فى هم وسهاد .. ..

فى تلك الليلة وضعت على الوسادة رأساً تتنازعه العواصف الهوجاء .. ولم يكن الخاطر المفظع ، الذى أخذ يلدغنى كالحية الرقطاء ، فيطرد عنى النوم والأمن ، هو الأميرة وما قد تفعل أولا تفعل ؛ بل شقيقتها بتسى ؛ وما قد يكون من أمرها وأمرى يوم يصبح سينو ملكا مطاعاً .

إن هذا هو الخاطر الذى سهد جفنى الليالى الطوال . . .

– ٧ –

حل موسم الحصاد ، فحيثما سرت فى الريف ، ترى القمح يقطع بالمناجل ، ويكدس فى الحقول ، ويرسل الزراع إلى الملاك حزمة منه ، لكى يطلعوا على الغلة الطيبة التى جادت بها أرضهم . وقد اكتظت طرفات الريف بالحمير ، تحمل الأكداس العظيمة من القمح ، فتنقله من الحقول إلى البيادر المنتشرة حول القرى ، وهناك تشهد أجمل مناظر الريف جميعاً . إذ ترى الثيرة الحمراء ذات القرون المليحة منهمكة دائبة تدوس القمح بأقدامها المتينة ، فتفرق بين القمح والتبن ، وهى تسعى ذهاباً وإياباً ، ورأسها الجميل يهتز من أعلى إلى أسفل ، ثم من أسفل إلى أعلى .

كانت سنةَ حصاد ضخم وغلة وافرة . وقد امتلأ الريف بشراً وتفاؤلاً ، وازداد الزراع سروراً عند ما أصدر أمينى أمرًا إلى الحكام بأن ينقصوا من الضرائب هذا العام . لكى يهيىء لتتويج الأمير سينوجواً من الرضى والارتياح يعم جميع أنحاء القطر .

ونال العاصمة قسط من هذا المرح المنتشر فى البلاد ، وكان من

جملة الحفلات التى أقيمت مسابقة الرماية التى كنت أتوقعها منذ حللت العاصمة . والتى لم أهمل الاستعداد لها يوماً واحداً . وقد نادانى الملك قبيل المسابقة وتلطف إلى وقال لى : « ويحك ياابن سنوحى ، إن يوم الحساب قد حل . فأنبت لهؤلاء الشماليين أن الجنوب ينبت السواعد المتينة ، والبصر الثاقب . »

ولقد صاحبنى فى ذلك اليوم توفيق لم أكن أتوقعه كله . فلقد رميت عشرة أسهم كما فعل جميع المتسابقين . وكان الهدف منصوباً عَلَى الضفة الشرقية ، وإلى جانبه شخص يراقب السهام ويعد الإصابات ، وهو مستتر وراء جدار يقيه من الرميات الطائشة — وما أكثرها !

فى ذلك السباق وصلت جميع سهامى إلى الضفة الشرقية . وسبعة منها أصابت الهدف المنصوب . فكان فوزاً لم يوفق أحد إلى خير منه ، اللهم إلا جلالة الملك نفسه . فإنه وإن لم يكن من المتسابقين وقف فى النهاية وأمسك بقوسه الهائلة ، ورمى العشرة الأسهم بسرعة ، فوقعت كلها فى وسط الهدف ، لم تشذ منها واحدة .

تلطف جلالته ودعانى إلى مقصورته ، وهنأنى بنجاحى ،

ومنحنى على سبيل المكافأة ، سهماً صغيراً من الذهب الخالص . وقال لى إنه مسرور لفوزى ، وإن من الواجب على أن التحق بخدمة الأمير « سينو » فإنّ مواهبي ضائعة فى معية الأمير آنى ، الذى لا يعرف إلا صيد البط ، ورمى النيازك . وأولى بهذه المقدرة الفائقة أن تجرب فى صيد الأُسد ومنازلة السباع . « إن ولدى سينو سيعود إلى العاصمة قريباً . وسألحقك بحاشيته بمجرد عودته . »

* * *

وبعد فإن من الأيام ما هو شؤم كله ، منذ تطلع شمسه فى الشرق ، حتى انحدارها إلى الغرب ، ومنها ما هو يمن وبركة فى أوله ونهايته ، وفى كل ساعة من ساعاته . وفى كلا الحالين تمارس النفس لوناً واحداً تألفه ، خيراً كان أو شراً . ولكن هنالك أيام مختلطة مختلف آخرها عن أولها . تطالعك فى الصباح بوجه عابس متجهم ، ثم تنبسط أساريرها فجأة وتأخذ فى الابتسام ، ثم تضحك حتى تبدو نواجذها ، ثم تقهقه حتى تملأ الفضاء مرحا صاخباً .

هذه ثلاثة أنواع من الأيام . أما الرابع فإنه كيومنا هذا الذى

بدأ باسماً ضاحكا ، وانتهى فى ظلام حالك . تحتله مأساة مفظعة مفجعة ، ليس لها فى حياة مصر نظير . وذلك أسوأ الأيام جميعاً . . .

إن ذلك اليوم الذى كانت المدينة فيه يغمرها الفرح ، و يشملها العبث والمرح ، واحتشدت فيه الجموع لتشهد تسابق الرماة . ذلك اليوم نفسه قد تلته ليلة ليلاء هب فيها الملك أمينى من نومه منزعجاً ، لأن عصبة من الخونة اقتحمت داره لكى تفتك بشخصه المقدس .

إن كثيراً من الناس يظن أن للملك أمينى أسْداً تحرسه إذا نام . فلا يستطيع أحد أن يدنو من حجرته . وأن هذه الأسد تطلق فى الليل ، فلا يدنو من القصر شخص غريب إلا تعرض للموت المحقق . ولكن الناس تنسى أن المكلفين برياضة هذه الوحوش هم عبيد من الليبيين ، وأن كثيراً من حراس القصر عبيد من الليبيين أيضاً . إن هذا الاطمئنان العجيب إلى الغرباء ، كاد أن يكلف الملك حياته، ويفقد الأمة المصرية أثمن شىء لديها . .

لقد رأينا الملك فى حديثه مع وزيره هامان ، غير مطمئن لما يبدو فى ملكه من الهدوء الظاهر . ويخشى أن يكون تحت الرماد جمر يشتعل . ورأينا الوزير فى أدب ولباقة يحذره القصر ونساء القصر .

ولـكن الملك الذى لم يصادف فى حياته غير النجاح المطرد ، ولم تعترضه عقبة إلا أزالها فى مثل لمح الطرف ، لم يكن يتوهم أن دسيسة لاغتياله تدبر فى قصره . وأن الشر قد يتفاقم حتى يضطر لأن يدافع الموت بيديه . لذلك لم يسىء الظن فى حراسه وأتباعه ، بل كان يظن أن هيبته كفيلة بأن تشل من خوفها الأيدى . وتجف من خشيتها الأذرع . . . ولست أشك فى أن للمليك نظرات تبعث الرعب فى قلوب الجناة ، وتقلم أظفار البغى ، فى أكثر الأحيان ، ولـكن قد يكون البغاة قوماً غلبت عليهم الرعونة ؛ أو كانوا ممن طاشت أحلامهم . أو لعبت بألبابهم أطماع شريرة . أو كانوا ممن تصَرّفهم وتعبث بهم إرادة عنيدة ، قد امتلأت حقداً وضغناً . فمن الجائز فى مثل هذه الحال ، أن يصاب الإله الطيب بأذى شديد . إن الدابة الحمقاء قد تفتك مع أنها لا تعقل ، بل هى تفتك لأنها لا تعقل . . . وما كان أولئك الشريرون الذين اجترأوا على الاعتداء على شخص الملك المقدس ، إلا دواب لا تعقل ، تسيرها يد آثمة وإرادة شريرة .

فى تلك الليلة الليلاء كان الملك متعباً بعد مجهود يوم طويل ، ولـكنه برغم ذلك دعا وزيره هامان ، وتحدث إليه فى أمور رأى

أنها لا تحتمل الإرجاء إلى الغد ؛ ثم أوى إلى فراشه متعباً ، واستسلم لنوم هادئ ولكنه نوم خفيف جداً .

وانتصف الليل ، والسكون يشمل كل مكان ، والهدوء باسط جناحيه على كل ركن وكل حجرة فى القصر الملكى . ثم انقطع السكون فجأة ، وارتفعت فى وسط الليل صرخةٌ مزقت الفضاء . فنهض الملك منزعجاً ، ورأى على ضوء المصباح حاجبه الأكبر المصرى يدخل من الباب مترنحاً ، ثم يخر مضرجاً بدمه ، ومن ورائه وجوه شريرة تبدو فى ضوء المصابيح الضئيل وهى تعدو نحو حجرة الملك .

لست بحاجة لأن أسهب هنا فى وصف ذلك الحادث العجيب ، فإن الناس جميعاً لا تزال تذكره وتتحدث به . . والكل يعرف كيف رد الملك البغاة على أعقابهم بأن ألقى عليهم تمثالاً من الرخام ، ثم أعقبه بتمثال من النحاس ، ثم تناول فأسه وانقض على المعتدين يضربهم يميناً وشمالا . وقد مات منهم من الرعب أكثر ممن قضى نحبه قتيلا بضربة فأس أو خنجر .

وقد تحمل الملك العبء الأكبر فى هذا القتال ، ولكنه لم يكن يقاتل منفرداً ، بل كان هنالك أيضاً عصبة صغيرة من أبناء طيبة ،

أبلت فى هذه المعركة الغريبة أحسن البلاء ، وأمكن بمساعدتهم تطهير القصر من أجساد القتلى ، ودمائهم وأشلائهم .

✲ ✲ ✲

وأنا ما الذى كنت أصنع فى تلك الليلة ؟ هل كان لى علم بهذه الفتنة المنكرة ؟ لقد اتهمنى تجار الشر فيما بعد بأنى كنت ملماً بكل شىء ؛ وأنى من المتآمرين مع الأميرة الليبية وعصبتها ؟ وإلا فكيف استطاعت المصادفة المحضة أن تسوقنى إلى قصر الأميرة فى تلك الليلة ، وأن تدفعنى إلى مصاحبتها هى وحاشيتها من العاصمة إلى الحدود الغربية ، وبذلك ساعدت العصابة على الهرب والإفلات من القصاص ؛ واللحاق بالقبائل الليبية ؟

إننى لست أملك أمام هذه التهمة القاسية سوى أن أقسم بالآلهة جميعا أننى برىء نقى الصحيفة ، طاهر الذيل . ولئن كانت ظواهر الأمور قد تألبت على لكى تجعل طريق البراءة والنجاة ضيقاً عسيرا ، فلست أول متهم اتفقت ظواهر الأمور على أن تخدع أبصار العدل عنه ، وتضلل سبل الحكم عليه .

لقد كنت تلك الليلة فى دارى نائما وكانت من الليالى القلائل التى أمكننى فيها أن أغمض جفنى على نعاس هادىء عميق . .

فأيقظنى من النوم قبيل الفجر رسل الأميرة نورا ، نخرجت فألفيت قافلة تتقدمها الأميرتان ، ومن خلفهما عدد كبير من الأتباع . كلهم من الليبيين . كانت كل من الأميرتين راكبة على مقعد وثير ، مثبت على ظهر حمارين ، حسب الطريقة المألوفة . وكان هنالك دواب كثيرة أخرى تحمل الزاد والمؤونة . كأن الركب مزمع سفراً طويلا . والنهر قليل الماء فى ذلك الوقت ، والقنوات جافة تماما ، فلم يكن بد من أن يستخدم الركب الحمير . وكان الرجال يمشون على الأقدام ، وقد لاحظت فى سواد الليل أنهم جميعا مدججون بالسلاح .

لم أستطع أن أفهم من هذا كله شيئا . فلم يسعنى إلا أن انحنيت محييا أمام الأميرتين ؛ ووقفت أنتظر ، لعل كلمة تقال فتكشف القناع عن هذا المظهر الغريب . ولكن الأميرة لم تزد على أن قالت : « إننا ذاهبون فى رحلة قصيرة نحو الغرب ، ونريد أن تصحبنا . . . ولست بحاجة لأن تستحضر شيئا . »

ولكنى برغم هذا أسرعت باستحضار قوسى ونصالى ، وفأسى ورمحى ، واستكملت عدتى ، ومشيت إلى جانب الأميرة . واتخذنا طريقنا نحو الغرب . كأننا نسعى إلى الصحراء من أقصر سبيل .

كان الليل يظلنا ونحن نبتعد عن العاصمة ، وقد غادرناها دون أن يعترض طريقنا أحد ؛ ولو أننا صادفنا أحدا لما كان فى مظهرنا ما يدعو إلى الريبة ؛ فليس بمستغرب أن تخرج الأميرة وحاشيتها قبيل الفجر ، للتنزه على حافة الصحراء ، ثم تعود قبل أن ينتصف النهار . ولم يكن فى كل هذا ما يقلقنى غير أمر واحد وهو أن الأمير آنى لم يكن معنا ، وقد أجهدت فكرى ، أحاول أن ألتمس سببا لغيابه . فلم أهتد إلى سبب مقبول ، وتوهمت آخر الأمر أن الأمير قد سبقنا ، وأنا لاحقون به . فزال عنى القلق عند ما خطر هذا الوهم ببالى ...

لم يلبث الفجر أن طلع ، وكنا نسير نحو الغرب ، مع انعطاف يسير إلى الشمال ، وقد لاحت لنا أصنام منف وتماثيلها من بعيد ، يحيط بها ضباب شاحب اللون ، فتبدو من ورائه كأنها أشباح ضخمة مبهمة ، فإذا أطلت النظر إليها ، خيل إليك أنها تتحرك نحوك ، وذلك حين ينجاب الضباب عنها قليلا .

و بعد سويعات قلائل ، طلعت الشمس من ورائنا ، فأشرقت على قطار غريب مريب ، يتجه نحو الغرب ، كأنه يهرب منها ، ومن ضيائها ، وقد جعلنا ظلنا أمامنا ، وأخذنا نتبعه ونقتفيه . واختلست

النظر إلى وجه الأميرة نوراً ، فإذا هو يكسوه الشحوب . وقد هبط الخدان ، ونتأ عظمهما واتسعت العينان فوق اتساعهما المألوف . وكان يحيط بكل عين دائرة سوداء ، وغضون لم أكن ألحظها من قبل . . . إن أمراً خطيراً قد حدث من غير شك ، فقد وثبت سن الأميرة أعواماً طوالاً منذ رأيتها بالأمس . و بتسى ما خطبها ؟ إنها تخفى وجهها عنى كلما حاولت أن ألقى عليها نظرة خاطفة . . وكأنى أرى عينيها محمرتين من أثر البكاء . فما أشد تلهفى لأن أرى اللثام يرفع عن هذا كله ! ولكن أحداً من الركب لم ينبس بكلمة ، والكل يمشى مطرقا صامتا . .

وفى وسط الضحى ، بلغنا حافة الصحراء ، وأبصرنا الهرم المدرج عن يميننا ، ثم لم نلبث أن هبطنا مع الظهر واديا مطمئناً وسط هضاب الصحراء . فلم نقم فيه لحظة . حتى برز إلينا — من حيث لا أدرى — عصابة أخرى من الناس . لم أكد أراهم حتى انبريت لهم ورمحى فى يدى إذ ما تشككت أنهم من قطاع الطريق . ولكن الأميرة صاحت بى أن تمهل فهؤلاء أصدقاؤنا .

وتقدم هؤلاء الأصدقاء فركعوا بين يدى الأميرة وخيل لى أنهم يتجاوزون المائة عداً ونظرت إلى الأميرة وقالت : «ياسنوحى

لقد أبلغتنا مأمننا ، وتستطيع الآن أن تعود أدراجك ! إن فى وسعى كما ترى أن أسوقك معى إلى قومى ، عبداً رقيقاً ذليلا ؟ كما ساقنا رجالكم من قبل عبيداً وإماء فإنكم يا أبناء الطين لا ترعون الحرمات ، ولا تعرفون لامرىء كرامته . وتتزوج من أمرائكم، وهوشرف نوليه إياكم و إياهم . فيحرمهم ملككم وراثة العرش لزواجهم منا . أقول إن بوسعى أن أسوقك معى . ولكنى لا أجازى الإحسان بالإساءة ، ولقد كنت لنا خادماً أميناً ، وفوق ذلك فانى أريد منك أن تبلغ مليكك رسالتى الأخيرة : قل له إنى سأعود قريباً ، ولن أكون هذه المرة أسيرة ذليلة ، بل أميرة نبيلة تتقدمنى آلاف الرماح ، تكتسح السهول والبطاح ؛ قل له إنى فى ذلك اليوم لن أخطىء كما أخطأت بالأمس . »

هذه هى الكلمات العجيبة التى طرقت مسامعى ، فتصاعد الدم إلى وجهى ورأسى ، وتملكتنى دهشة هائلة ، كادت أن تفقدنى الرشاد .

وغودرت وحدى وسط هذا الوادى ، وقد ملكنى الوجوم بحيث لم يستطع جسدى ولا بصرى ولا عقلى حراكا . . ولعلى

قد مرت بى ساعة وأنا فى هذه الحال ، ثم عدت متثاقلا موليا وجهى نحو الشرق ، وكنت أتعثر فى مشيتى كأنى أسير على غير هدى .

ولم يزايلنى الوجوم ، حتى اقتربت من العاصمة ، فاذا يونس يسير للقائى فقص على وقصصت عليه كل شىء .

- ٨ -

الآن وقد أشرفتُ على الشطر الأخير من قصة عمرى المضطرب فانى أريد أن أمسك بيدك ، وأعرض أمامك الصور الأخيرة ، لـكى تراها وهى تمر بين يديك مر السحاب .

انقضت شهور طويلة على الحوادث التى سردتها من قبل ؛ وألفيت نفسى فى مكان آخر على حافة الصحراء ، جالساً فى خيمتى ، وقد أظلم الليل ، ولمعت النجوم فى السماء ، وقد أخذت أستذكر الماضى ، وأصور لعينى الأحداث الجسام ، التى مرت برأسى .

كاد لى الدهر فأجاد الـكيد ؛ ونصب من الوهم شراكا متينة لصيدى ، لولا رحمة الآلهة وعطف الملك ، لأطبقت على ، وأوردتنى موارد الهلاك ، ولـكن أمينى أبى أن يصدق أنى ارتـكبت خيانة أو إثما . وقد أصغى إلى حديثى بانتباه واهتمام ، وأنا أُفضى إليه بكل شىء جرى ، دون أن أحذف حادثاً أو أنقص كلمة . فلم يتسرب عنده الشك فى لفظ نطقت به . إنه يعرف فى أُسرة سنوحى النجدة والولاء ؛ وما كان لأحد أبنائها

أن يتخلف حين تقصده أميرته ، التى كلف رعايتها وطاعتها ، فى أى أمر من الأمور التى تفرضها الخدمة والإخلاص . ولم يكن فيما طلبته الأميرة شىء يثير الريبة . ولئن كان فى عملها ما يبعث الشك ، فما ينبغى لحاجبها وحارسها أن يأذن لمثل هذا الشك أن يخامره أو يجد إلى خاطره سبيلا

أجل. إن أمينى كان بى براً رحيما ؛ ولكنى — وياللأسف — لا أستطيع أن أقول هذا عن الأمير سينو ، الذى لم يلبث أن هبط العاصمة ، وأقيمت له الحملات الضخمة . وعقد التاج المزدوج على مفرقه . وسجدت بين يديه وفود البلاد المصرية من أقصى القطر إلى أدناه . فأصبح سينوسرت ملكا جباراً إلى جانب أبيه الملك الكريم . . . حاولت جهدى أن أكسب رضى الملك الشاب ، فكانت محاولاتى ترتد كالسهام الطائشة ، وظل نافراً منى ، مزوراً عنى ، وأعيتنى الحيل ؛ وأوشك حبل الأمل أن يتمزق .

ثم ابتهجت سروراً — وإن لم يكن فى الأمر ما يبعث السرور — حينما سرنا معاً لمحاربة الليبيين ، لعل الفرصة أن تتاح لى فى ميدان القتال ، فأكتسب إعجاب الملك الشاب .

وحسن تقديره ، إن كان قد قدر لى ألا أفوز بعطفه وحبه .
ولـكنى هنا أيضاً لم أكن أكثر حظاً منى هناك . . . ولماذا أبغضنى سينو كل هذا البغض ؟ أتراه ما برح يظن أن لى يدا فى هرب الأمير آنى . وهو يعلم الآن أنه لم يهرب ، بل التحق بأمه فى الشمال ، ويعلم أيضاً أن الأمير كان يجهل الدسائس التى تدبرها زوجته الليبية ؟ أم تراه يحقد علىّ لأنى سمحت للأميرة الفاتنة بتسى بأن تغادر أرض مصر فى صحبة أختها وقد كان يمنى النفس برؤيتها بعد عودته من أرض واوات . . أم تراه قد أسر إليه الوشاة حديثاً عن حبى لها ، وشغفى بها ؟ إن كان هذا هو الخطب ، فان الداء عضـال ، ولا يشفى منه غير مر السنين .

وعند ما خطر لى هذا الخاطر ، أدركت أن أيامى فى خدمة البلاط مرهونة ببقاء أمينى على العرش . وستكون الحياة بعده جحيما ، وعذابا أليما .

لم يعد أمامى بعد هذا مخرج إلا أن أبذل دمى بإسراف وتبذير فى هذه الحرب الليبية الشعواء ، لعل سهماً من سهام « الطحين » المسددة أن يكون فيه الشفاء من هذا البلاء .

إن الأميرة الليبية لم تقصر فى تنفيذ وعيدها ، فلم يمض على فرارها بضعة أشهر ، حتى وردت الأنباء بأن الصحراء الغربية باتت كعش الزنابير دوياً وهرجاً ومرجاً ونشاطاً ، وأن لا بد من المبادرة بإرسال جيش كبير على الحدود الغربية . .

و يتألف الليبيون — كما هو معروف — من شعوب وقبائل شتى ، أكبرهم عدداً وأعظمهم جاهاً من غير شك هم الطحين قوم الأميرة الشاردة . يليهم فى القوة والبأس الطميح ، ثم الريبيون ، ثم المشواش ، ثم العمنت ، ثم قبائل أخرى أضعف شأناً وأقل خطراً . هذه الجماعات كانت تشن الغارات على تخوم مصر الغربية منفردة فى الغالب . وكان من السهل الميسور ردها على أعقابها ؛ ولكنها فى هذه المرة استطاعت أن تأتمر وتتفق على مهاجمة مصر مرة واحدة . وهو أمر يشهد لهذه الليبية بالبراعة ، المثيرة للدهشة والإعجاب .

ولكن أمينى أيضاً لم يهدأ ولم يغمض له جفن ؛ بل تملكه غضب سماوى مقدس ، لم يلبث أن استحال إلى قوة شامخة وعزم جبار . فإذا هو يصل الليل بالنهار ، لكى يجند جيشاً ضخماً ، لم تشهد ربوع النيل له نظيراً . . .

وتولى الملك الشاب قيادة هذا الجيش العظيم ، وقلده أمينى لواء القيادة فى حفل هائل جمع الآلاف من الجند ورجال الدولة . وفى ساعة الرحيل صاحبنا الملك مودعاً بضعة أميال ؛ ثم منحنا بركته ، و بركة الآلهة جميعاً ؛ ووقف ينظر إلينا ونحن نبتعد شيئاً فشيئاً نحو الشمال قبل أن نميل إلى الغرب . . .

ولم يكتف الملك الجليل بهذا التوديع ؛ بل أرسل بعد بضعة أيام رسولا يحمل إلى ولده الملك الشاب ، رسالة تتضمن تلك الوصية الشهيرة ، التى يزوده فيها بنصائحه الغالية . والذى أخشاه أن هذه الوصية تحمل فى ثناياها طابع الغيظ والكمد . والنقمة على الذين ارتكبوا تلك الخيانة المزرية . فهى متأثرة بظروف الزمن الذى كتبت فيه .

كتب الملك إلى ولده يقول: « اليوم وقد غدوتَ ملكا و إلهـا ، فأنصت إلى كلامى ، وألق إلىّ انتباهك ؛ حتى تصبح أهلا لأن تحكم الأرض ومن عليها ، والأنهار وشواطئها ، وما يجرى فيها من ماء وما يسبح فيها من حيوان .

« احذر الأتباع والخدم ، ولا تجعلهم يقتر بون منك بحيث تزول الفروق ، وتنمحى الكلفة ؛ بل أقم بينك و بينهم الحجب ، حتى

يعرفوا قدرهم ، ويلزموا مكانهم ، أَوْلِ ثقتك بنى مصر عامة ، وأبناء الصعيد خاصة ، ولا تسلم أمرك إلى أجنبى لم يشرب من مائنا ، ولم يرع فى مرعانا . . . احفظ الشطر الأكبر من نفسك لنفسك ؛ ولا تبذلها للأخ وإن بدا لك أنه معدن الإخلاص . ولا للصديق ، وإن ثبت لك أنه آية الوفاء ! وأقلل ما استطعت من الخلطاء ؛ فإن مقام الملك أسمى من أن يتعرض للابتذال ، أو يستهدف للاستهتار .

« إذا غفت عينك ، فلا تدع روحك تغفو ؛ وليكن من نفسك حارس على نفسك ، وأقم من قلبك اليقظ راعياً يسهر عليك . ففى يوم البلاء تقل الأنصار وتتضاءل الأعوان .

« لقد طالما أطعمت اليتيم ، وأجزلت الهبات للفقير ، وكسوت العارى ، وأغثت الملهوف ، وانتقمت للمحروم ممن كان سبب حرمانه ، وأمسكت بيد الضعيف المسكين حتى بلغ مأربه ، ونال أمانيه فى الحياة . والأسير الذليل أطعمته وآويته ، وقربته وأدنيته ، وكنت أستطيع أن أطعمه المنون وأسقيه الهلاك ، وليتنى فعلت !

« إن ما لقيت من النكران والعقوق ، وما جوزيت به من الكفر والجحود لجدير بأن يصم بنى الإنسان جميعاً بعار لا يغسل

وتدنيس لا يمحى . إن الأفواه التى أطعمتها عضتنى بأنيابها الحادة ، وأضراسها السامة . والأرجل التى انتعلت بإحسانى ، سعت فى هلاكى ودمارى . والأجسام التى كسوتها الكتان الناصع الجميل ، انقضت على للفتك بى ، وأنا الذى منحتهم العيش والحياة .

« إنهم لم يرعوا حرمتى ، وأنا رب العرشين ، وحاكم البر والبحر ؛ تماثيلى منصوب فى كل دار ، تقرب إليه القرابين ، وترفع إليه الدعوات . والعيون جميعاً تتطلع إلىّ لأنها تعلم أنى محيي المطر ، ومطهره من الفوضى ، وموطد ركن العدل والإنصاف فيه . . ومع هذا كله ـ ومع مكانتى الكريمة فى نفوس شعبى ـ قد اجترأ اللئام على أن يتآمروا فى الخفاء على قتلى ، دون أن يسمع أحد أو يبصر شيئا .

« دبروا جريمتهم ، لكى يرتكبوها ، مستترين بظلام الليل ، ومتدرعين بدرع الغدر والخيانة . . ومن قبل كانوا يبدون الابتسام والذل والخضوع . فى تلك الليلة السوداء كنت متعباً فتناولت طعام العشاء ، ورقدت على فراشى ألتمس الراحة والنّعاس . فلم يكد الكرى أن يمس جفونى ، حتى سمعت صوتاً كأنه قعقعة

السلاح ، وشخصاً يستصرخنى ، فانتبهت منتصباً كأنى حية الصحراء . . وأدركت فى مثل لمحة العين أن الفتنة قد رفعت رأسها البشع ؛ وأن الشر أقبل لاغتيال شخص ، من حقه أن يقدس ويكرم .

« لم يكن هناك مكان للأسى والأسف ؛ بل تناولت فى سرعة البرق سلاحى ، وقاتلت اللئام منفرداً . فجرى دمهم الدنس فى الحجرات ، وتساقطت أشلاؤهم على البسط ، ولاذ من استطاع منهم بالفرار . ولولا ظلام الليل ، الذى لا تجدى فيه المصابيح الضئيلة ، لما استطاع هارب أن ينجو من يدى تلك الليلة .

« إنهم قد أقدموا على عملهم المنكر ، قبل أن أجمع البلاط والنبلاء والأشراف ، وأجلسك معى على العرش . اقترفوا جريمتهم وأنا أعزل من السلاح ، وأعزل لبعدك عنى . ولو أنك كنت إلى جانبى تشاطرنى العرشين والتاجين ، لما اجترأ الأنذال على ارتكاب عدوانهم الشنيع .

« إن النساء قد دبرن هذا الكيد ، وأشرفن على تنفيذه ، وشر الدسائس ما نبت فى دارك ، تحت سمعك و بصرك ، وأقتل السهام سهم جاءك من الجهة التى ظننتها أمناً وسلماً .

« وشاءت الآلهة أن تحفظني وترعاني كما حفظتني من قبل . وما كانت الآلهة التي سدّدت خطاي وأمسكت بيدي ثلاثين عاماً ، لتذرني فريسة لحقد الأوغاد وكيد النساء . . . وأنا الذي بسطت يدي على الحدود الجنوبية ؛ ثم انثنيت فاستوليت على الدلتا ، ووحدت القطر تحت لوائي ، وأجريت فيه العدل والأمن بسطوتي و بأسي ، و بكرمي وحسن رعايتي .

« أنا الذي أنبت القمح والشعير ، حتى أحبني إله الزرع والشجر . وحياني النيل حيثما ذهبت ، وأينما نزلت ؛ في عهدي وتحت حكمي لم يعرف الناس جوعا ولا عطشاً . وقد سهرت لكي يناموا ، ونصبت ليستريحوا ، وحاربت ليأمنوا .

« لقد رضت السباع الضارية ، وفتكت بوحش البر والبحر ، ونهضت إلى بلاد النوبة ، فأخضعت واوات ، وهزمت ما توي ، وألزمت أجلاف البدو أن تسعى كالكلاب ، مطأطئة رءوسها ، مغمضة جفونها .

وكما شيدت للحرب صرحا عاليا ، بنيت للسلم بناء مشمخرا . فشيدت قاهرة القطرين ، وحصنتها بالقلاع المنيعة . وشيدت فيها قصرا ، يُبلي الزمان ، وتفرق منه الخطوب . ولم يكفني أن

جعلته ضخما فخما ؛ بل جملته وزينته ، وحليته بالذهب، وجعلت سقفه من اللازورد ، وأرضه من الرخام البديع . وأبوابه من النحاس ، ومغاليقها من البرنز بناء يبقى على الدهر ، ويسخر من الحدثان .

« وأنا اليوم أعلى شأناً ، وأعظم جاها ، بأن أصبحت شريكى فى الملك وقرينى فى العرش . فالزم سيرتى واتبع سنتى ، فان عينى ترعاك أينما سرت ، وقلبى يتبعك حيثما نزلت .

« سن على الليبيين حربا لا هوادة فيها ، ولا ترحم من لم يرحم ، واسق الصحراء الظامئة من دمهم . ولا تأخذك فيهم رأفة أو شفقة.فانك إن لا تقهرهم يقهروك ، وإن لم تذلهم أذلوك ، ولهم أفواه لا تنطق بحمدك حتى تحس طعم المنون ، فتدرك أنه مر المذاق . ففيم الحرص على حياة قوم لا يعرفون للحياة تقديساً أو كرامة ؟

« إنى أعرفك جباراً لا ترحم نفسك فى الحرب . وتكلفها فوق طاقتها ، ولكن حياتك اليوم حياة أمة ، فلا توردها موارد التهلكة من غير طائل ! واعتمد على أعوانك وأنصارك ، فان فيهم القائد المدرب ، والبطل المجرب . وإن كنت لا زلت

فى شك من أمر سنوحى ، فقلده قيادة الغارات الشاقة ، وجربه فى المواقف الرهيبة ، فان حمدت له بلاءه فأكرمه . وإلا فرده إلينا ؛ فإن لأبيه علينا ديناً لا نستطيع وفاءه مهما أكرمنا أسرته وأحسنا إلى ذريته .

« والآلهة ترعاك ، وتسدد خطاك »

* * *

وهكذا بدأت الحروب الليبية الطاحنة ، فكانت شغلنا الشاغل فى السنين الأخيرة من حياة أمينى . وكانت خطتنا فى الحرب أن نحشد جيوشنا الجرارة ، بعد أوان الحصاد . ففى ذلك الوقت يكثر الزاد ، ويقل العمل فى الحقول . ثم تجىء أشهر الفيضان ، والعمل فيها معطل أيضاً ، فنستطيع أن نتفرغ للغارة والغزو . وللتنكيل بتلك الوحوش الضارية ، فاذا اقترب الشتاء لم يكن بد من تسريح معظم الجيش ، فلا يبقى سوى قوة متوسطة تحرس التخوم وتدفع العدوان . ولكنها لا تقدم على هجوم عظيم أو غارة بعيدة المدى .

وفى مواسم الهدوء النسبى هذه ، كان الملك الشاب يعود إلى العاصمة ، يسوق الغنائم والأسلاب ؛ ويخلفنى لأتولى القيادة

فى تلك الأشهر ، التى ندعوها أشهر الدفاع . كما ندعو الأخرى أشهر الهجوم .

ولقد بلانى الملك سينو فى هذه الحرب ، وامتحننى أقسى امتحان . فان وصية والده قد صادفت هوى فى فؤاده . فلم يكن هنالك خطرٌ داهمٌ أو مرام وعر إلا دعيت أن أقود كتيبتى إليه، ويخيل لى أنى استطعت أن أكتسب استحسانه ، وإن لم أوفق لاكتساب عطفه ورضاه . . . إلى أن حل الشتاء الرابع والأخير من هذه الحرب الضروس فارتكبت عن نية وعمد ذلك الذنب ، الذى أحفظ الملك الشاب وأغضبه ، واضطرنى لأن أغادر مصر إلى أرض (الرطين) .

فى الشتاء الرابع كان العدو فى حالة من التضعضع والإعياء ، بحيث لم يكن يجرؤ على الاقتراب منا ، والدنو من معسكرنا . وكانت طلائع الأمور تشير إلى أنه قد يعود قريبا إلى خيامه فى قلب الصحراء . وضجرت أنا وأفراد الكتيبة من هذا المجهود الذى اضطررنا إليه . وحان الوقت الذى يجىء فيه الجيش الكامل ، وعلى رأسه الملك الشاب ؛ ولم أرد أن يجىء فيرانا لم نفعل شيئاً . فجمعت حولى رؤساء الكتيبة ، وقلت لهم : « هذا

الربيع قد أظلنا ولم نفعل شيئاً نحمد عليه ، أيرضيكم حين يأتى الملك ، أن نقول له إننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ؟ . فقال الجميع إن هذا لا يرضيهم ، فسألتهم : ماذا يقولون فى غارة شعواء نسطو بها على الأوطان البعيدة للطحين ، ولا نعود إلا ومعنا أدلة تنطق بأننا لم نقض الشتاء عبثاً .. وكأنى بهذا الاقتراح قد أزحت عن أفئدتهم هماً وكربا . وبعثت فيهم مرحاً ونشاطاً عجيبا .

فى ذلك الربيع شننا على الليبيين غارات سيتحدث بهولها أبناؤهم وأحفادهم على مدى السنين . وقد جمعنا من أسلابهم ما يزيد على ما جمعه الجيش بكامل عدده وكتائبه . وبينما نحن فى أوج النصر ، وقد جلست فى خيمتى أشرب قدحا من الجعة وقت المساء إذا غبار يتطاير ، ثم يبدو من تحته طائفة من رجالى ومعهم سبايا يتعثرن بأذيالهن ، فاشتد سخطى على قائد تلك الجماعة . لأنى قد أصدرت أمراً صريحا بألا يشغلوا أنفسهم بجمع السبايا . . وهممت أن أنزل العقاب بذلك القائد ، ولكنى نظرت فإذا فى مقدمة السبايا وجه أعرفه ؛ وهو وجه الأميرة بتسى ؛ لم تزده السنين إلا حسناً وفتنة ...

– ٩ –

ثم انقضت أيام وليالٍ عذبة .. مرت سراعاً فلا أعرف ما عِدَّتها .

وأصبحت ذات يوم ، فإذا الأنباء تترامى إلى بأن الجيش الجرار يقترب ، وعلى رأسه الملك الجبار سينوسرت .

لا بد مما ليس منه بد! وقد حلت الساعة التى لا مهرب منها ولا مندوحة من أن تعود بتسى إلى قومها ، جالباً على ذلك من سخط المليك ما كان جالباً .

فى الأيام الأخيرة كنت فى شغل عن التفكير فى الجيش، وقائده ذى المقام الجليل . واليوم لابد لى أن أبادر قبل فوات الوقت إلى أن أضع الأميرة حيث لا تصل إليها تلك الأيدى الملكية الجبارة .

ولم أرد أن أكل هذا الأمر إلى أحد . فنهضت فى جنح الليل ، وقد هدأ المعسكر ، ونامت الكتيبة إلا الحرس الساهر ، وقد تسللت والأميرة فى هدوء وخفاء ، وغادرت المعسكر دون أن يحس خروجنا أحد . وقطعنا الليل كله نسير سيراً حثيثاً ونحن نسعى مع النجوم نحو الغرب . حتى أبلغت الأميرة ووصيفاتها

المكان الأمين . ورجعت أدراجى واجماً كئيباً ...

لم نلبث أن أظلنا الجيش الأعظم ، واتخذت كتيبتى مكانها المختار . وكان مكانى غير بعيد من معسكر الملك سينو نفسه ... إنه من غير شك قد علم بما حدث . ولكنه أخفى ضميره عنى ، فلم أحس منه شيئاً ، سوى ما ألفته من فتور وازورار ، وتجهم و إعراض .

ولكنه لم يكد يقضى بضعة أيام ، حتى بادر بقيادة حملة قوية ، وسار على رأسها ، واتخذ رجالها من صفوة الجند . ولم يرض أن أصاحبه . بل طلب إلى أن أراقب المعسكر حتى يعود . كان هذا العمل حتماً ينطوى على الرعونة والعبث ، وهو مخالف لأبسط مبادئ العقل ، ولوصية الملك الشيخ أمينى . إن حياة سينوسرت ليست ملكاً له حتى يعرضها لخطر غارة يشنها على عدو جرئ يائس من الحياة .

ولكن الملك عاد من حملته مظفراً ، يقود مئات الأسرى ، وهى تحمل أكداساً من الغنائم والأسلاب . ثم أعاد الكرة مراراً . وكان يرسل الطلائع يوماً للكشف عن مواقع العدو ، ويشن فى اليوم التالى غارة خاطفة ، فيعود بالأسرى و بالغنائم

وسرت فى المعسكر أنباء بأن الملك الشاب يريد أن يفرغ من حرب الليبيين بسرعة لكى يعود إلى العاصمة ويبقى إلى جانب الملك الشيخ أمينى .

ثم لم تلبث سحب الشك أن انحسرت عن ضياء اليقين ، إذ وصلت إلى يدى رقعة من صديقى يونس يقول فيها : « إن الملك أمينى قد ارتقى إلى السماء واتصل بالشمس ، وذهبت روحه إلى بارئها ، إن القصر يغشاه الصمت والوجوم . والقلوب مفعمة أسى وحزناً . وقد أغلق البابان الكبيران ، ورجال القصر جميعاً جلوس يظلهم الحزن العميق ، ورءوسهم على ركبهم . فدبر أمرك ، واكتسب رضى الإله الطيب سينوسرت ، ولا تدع الأهواء تحملك على أن ترتكب حماقة من الحماقات . »

فواهاً ليونس ، ما أطيب نفسه ! إنه لا يدرى أى صدع كبير قد خيل لى فى تلك الساعة أنه بات يفصل بينى وبين مليكى . ولا يعلم أن مصر كلها ستكون منذ الساعة أضيق من أن تحتوينى ؛ وأن لا بد لى أن أجعل بينى وبين سينوسرت فيافى وأقطاراً وصخراً ورمالا ، حتى تأذن الآلهة فيصفو قلبه ، ويشملنى عفوه ، إن كان هذا ممكناً .

أجل فى تلك اللحظة ، التى طالعت فيها رسالة يونس ، صح عزمى على أن أغادر القطر المصرى كله ، وأن ألتمس فى الأرض الفسيحة مضطربا ومجالا . لقد ولى الحب وغربت شمسه . وحلفتنى فى حالك الظلام . وقضى الملك الجليل ، والعاهل الجبار ، والركن الذى كنت آوى إليه ، والسقف الذى كان يظلنى ، ذهب ذلك النسيم المنعش ، وذلك الروح الذى كان يبعث فينا الأمن والطمأنينة . ففيم بقائى بعده ؟ فى ديار لا تلبث الوجوه فيها أن تتجهم لى ، أو تزور عنى ؛ والقلوب أن تمتلىء حقداً وموجدة ؟ . فيم بقاء الغصن بعد أن تحطم الجذع ، وما الخير فى صرح تهدم ركنه الركين وانهار عمده المتين ! لقد اندك صرح سعادتى فى مصر . ولم يبق إلا أن أحاول أن أتناول أنقاضه لأبنى بها صرحاً جديداً فى أرض غير الأرض ، وناس غير الناس

وهكذا ألفيت نفسى أسعى متخفياً نحو الجنوب كأنى سائر على غير هدى فى ضوء قمر لم يطلع إلا متأخراً فى الأفق الشرقى كأنه قرص من النحاس يعلوه الصدأ

هكذا بدأت رحلتى إلى بلاد الشـام (أرض الرطين) . .
والذى أعرفه من نفسى أنى رجل لا أقدم على أمر إلا بعد روية

وتفكير ، وتأمل وتدبر . ومع ذلك فانى إذا حاولت الآن أن أسأل نفسى ، لماذا اتخذت هذا القرار الخطير — ولعله أخطر قرار اتخذته فى حياتى ، وهل صدرت فيــه عن عقل وروية ؟ فاننى لا أستطيع أن أرد على سؤالى بنعم . ولعل حقيقة الأمر أنى لم أتخذ قراراً . بل كنت أتحرك كأنى فى حلم ، وأسعى كما يسعى النائم ، تدفعه رؤيا قوية عنيفة . أو كأنى نفس من الريح يتحرك أو ماء يندفع ، وهو لا يدرى ماذا يحركه ويدفعه

لقد حز فى نفسى بعــد ذلك أن علمت أن الإله المحبوب سينوسرت ، لم يكن فى حقيقة الأمر حاقداً على ولا ناقما ، ولم يكن يبغضنى ويحقرنى . ولكن الوهم سول لى هذا كله . وإنما الأمر الذى أحفظه منى حقاً هو هذا الهرب العجيب ، من غير سبب ، فى وقت تشتد فيه الحاجة إلى خدمة المخلصين .. ذلك هو الأمر الذى أغضبه حقاً . والذى قضيت السنين الطوال أسعى فى الاعتذار منه ، وإزالة الآثار التى خلفها فى نفس مليكى الإله الطيب سينو ، حتى صفح عنى وأذن لى بالعودة إلى وطنى

فاعجب معى أيها القارىء ، وتأمل كم نعانى من الخيال ، وكم تذهب سعاداتنا ضحية الأوهام !

— ١٠ —

إن هذا الفصل الأخير من حياتى هو أقصرها وأطولها . فهو أقصرها لأنى أستطيع أن ألخصه فى كلمتين : هاجرت إلى الشام ثم عدت إلى مصر . وهو أطولها ، لأنى بين هاتين الجملتين قد قطعت مع الشمس خمساً و عشرين مرحلة كاملة .

وقصة هذه الهجرة معروفة للناس جميعا ، فلا حاجة بى إلى الإطالة فى سردها . فالكل يعرف كيف انحدرت نحو الجنوب ، من الميدان الليبي ، حتى سرت إلى خير مكان يعبر منه النيل ، بالقرب من « الجميزة » ، حيث للنهر فرعان ، بينهما جزيرة « صنفرو » وكيف استطعت بسهولة أن أعبر إلى الجزيرة ، حيث قضيت الليل فى مزرعة . ثم قمت مبكراً فعبرت الفرع الشرقى فى زورق محطم لا دفة له ولا شراع . ولكن ريحا غربية دفعتنى حتى أبلغتنى الضفة الشرقية . ثم قصدت إلى الجبل الأحمر ، فجعلته عن يمينى ، وكيف انحدرت بعد ذلك إلى الشمال ماراً بعين شمس حتى بلغت السور العظيم ، المسمى سور الأمير ، الذى أنشأه أمينى ليرد به البدو عن الوادى . وكيف انتظرت حتى أظلنى ظلام

الليل قبل أن اجتزت هذا الحصن خوفاً من أن يرانى الحرس ... وكيف قاسيت ألم الجوع والظمأ وأنا إلى جانب البحيرات المرة ، حيث الماء الغزير ، الذى لا يشفى الأوام . وهنالك حدق الموت فى وجهى من غير أدنى شك ، لولا أن أنجدنى شيخ من البدو أطعمنى وسقانى ، وأذهب عنى الوحشة .

وبعد ذلك مضت أيام وليال طويت فيها الصحراء والفيافى ، حتى وصلت إلى أرض الشام . وهناك لقيت حفاوة وإكراما يعجز الوصف عن أن يحيط بهما .

إن أمراء الشام كثيراً ما كانوا يفدون إلى بلاط الملك أمينى ، يحملون الهدايا والهبات ، وكثيرا ما كنت أكلف بمصاحبتهم والسهر على راحتهم . لذلك كنت أؤمل أن يكرموا وفادتى ، وأن تطيب لى الإقامة فى ديارهم . ولكنّ الذى لقيته من برهم وعطفهم كان فوق كل وصف .

ولقد ظللت أنتقل فى ربوعهم حتى بلغت ببلوس ، وصعدت منها شرقا وسط الجبال الشاهقة ، إلى أن بلغت القطر الشرقى ، ثم انحدرت مرة أخرى إلى الجنوب . وأنا أصادف فى كل مكان نزلته حفاوة وجودا ، وإلحاحا من كل أمير أن أنزل عنده .

وأن أشاطره الملك ، وأتولى رئاسة مقاطعة عظيمة فى أرضه . إلى أن نزلت أرض الشام الجنوبية وهى أقرب الأقطار إلى مصر . هناك تلقانى الأمير ننشى بن آمو ، وبالغ فى إكرامى والاحتفاء بى ، وقال لى : « إنك هنا فى خير مكان يلائمك فأقم معى ، وشاطرنى الملك . ستجد فى هذه الأرض كثيرا من المصريين ، وستصغى إلى لغتك يُتخاطب بها ، فتزول عنك وحشة الغربة ، ومن هذه الأرض يمر الرسل من غير انقطاع بين مصر وبلاد الشام ، فتحس الصلة الدائمة بينك وبين وطنك بالتحدث إلى أولئك الرسل ، وبتحميلهم ما شئت من الرسائل إلى قومك وأصدقائك. فهل اقتنعت ؟ »

قلت : « كدت أن أقتنع . »

قال : « إذن سأقطعك ما تشاء من أرضى . وإن رغبت فدونك هذه المقاطعة العظيمة (ياع) ليس فى القطر أحسن منها، فى نجادها ما شئت من تين ومن كرم ، ووهادها تفيض ماء وخمرا . زيتها وافر ، وعسلها غزير ، وفيها من كل الثمار ، وبها من حقول البر والشعير ما لا يبلغ مداها البصر . وماشيتها لا تعد ولا تحصى ، ففيم التردد ؟ »

قلت : « قبلت هديتك مع جزيل الحمد ووافر الثناء ! »

وهكذا أصبحت أميراً من أمراء الشام ، وقد زوجنى ننشى من كبرى بناته ، وأنزلنى فى أحسن قصوره ، ثم ولانى قيادة جيشه ، واستطعت أن أنهض بهذا العبء بما فيه وفاء لما غمرنى به من الهبات والنعم ، فلقد أخضعت عدداً كبيراً من قبائل البدو وأجليتهم عن مراعيهم ومياههم . واستوليت على ديارهم وربوعهم . وعرفنى القريب والبعيد منهم . فالتزموا الهدوء ، ورضوا بالانزواء فى فيافيهم .

وهكذا انقضت السنون تباعا . ولكن حنينى إلى مصر لاينقضى . وكانت الرسل تفد من القطر الكريم إذا أقبل الربيع ، ثم تعود إلى مصر إذا ولى الخريف ، وكلما مر رسول أقام لدى أياما ، ونقل إلى الحديث عن أهلى وأصدقائى ، وعن الملك الكريم المتربع عرش مصر ، والذى لا يزال ناقما على هربى . وكنت أحمل كل رسول تحيتى إلى أهلى وأصدقائى ، وأريه كيف أقضى حياتى فى الغربة فى رفع ذكر مصر ، وإعلاء كلمة مليكها الجليل . لعل شيئا من هذا أن يصل إلى مسامع الاله الكريم سينوسرت ، فيرد الشريد إلى وطنه ، ويعيد الطائر إلى وكره .

وحدث مرة أن كان لدى عدد كبير من الرسل فى طريقهم إلى الشمال ، وفى مساء ذلك اليوم كنا جميعا جلوسا فى صحبة الأمير ننشى ، وفى المجلس عصبة من الأعراب ، و بينهم فتى جرئ لم أكن أعرفه يسمى شهيب . لم يكد عقد المجاس أن ينتظم ، والأقداح تدار على الحضور ، حتى أحسست من شهيب هذا ميلا لأن يتحدانى و يستفزنى . . وجرى الحديث عن مصر وملوكها ، فصاح شهيب : « لقد كان ملككم أمينى رجلا عظيما قوى الشكيمة شديد البأس . أما خلفه فليس بكفء ! »

فقلت من فورى : « أجل كان أمينى رجلا عظيما لأن سياطه قطعت جلدك وجلد الأجلاف من قومك ولكن حذار فان لسينوسرت أيضاً سوطاً أشد قطعا للجلود ، وسهامه النافذة أسرع من الريح إلى اختراق قلوب الجاحدين الكافرين . . فهو البطل العديم النظير ، لا ساعد أشد من ساعده ، ولا سهم أنفذ من سهمه ؛ ولا رمح أشد بطشا من رمحه . سل عنه الليبيين كيف مزقهم و بدد شملهم ، وأطعمهم العصاب ، ودس أنوفهم فى التراب ، سل عنه الماتوى والواوات ، كيف استرقهم واستعبدهم فخروا له ساجدين . ثم سل عنه ، أيها الفتى النزق ، الذى لم يولد

إلا أمس ، سل عنه أقار بك من الأعراب ، لتعلم أنه خلق لسحق سكان الرمال ، ولكى يجعلهم مثل الرمال ذلا وتبددا . سل عنه أيها المسكين لتعلم أنه البطل الذى لا يدركه التعب ، ولا يعرف طعم الغمض . . . هو النار المحرقة لأعدائه والظل الظليل لمن جاءه خاضعا مستكينا ، فاختر لنفسك أيها البدوى ما يحلو . . »

ذلك ما فهت به ؛ واستطعت أن أسكن به غضبى ، وأن أطرب الرسل الجالسين معى . اما البدوى وعصبته ، فلم يرق لهم كلامى ، وخرجوا جميعا مغضبين .

وفى صباح اليوم التالى أقبل علىّ فتى وسيم ، وقال : « إنى رسول الأمير شهيب ، وهو زعيم قبيلة ، ورئيس عصبة . ولم ترقه العبارات التى فهت بها أمس، وقد أرسلنى لأدعوك إلى منازلته ، فاما أن تنتصر فتفوز بزعامة قبيلته ، وتستولى على أرضه ، و إما أن يفوز عليك فتفقد كل شىء . »

قلت : « حييت أيها الرسول . عد إلى أميرك هذا وقل له إنى ما أردت به شراً ، ولم أقل له هجراً . ولكنه اعتدى على مليكى ، فلم يكن بد من أن أعرفه قدره ، ما بى رغبة إلى لقائه ومنازلته . ولكن إذا كان عزمه قد صح على القتال، فليأت غداً فى صحبه ،

وسأقابله ومعى صحبى ، شهوداً عدولا ، على أنى سأحاربه حرباً طاهرة خالية من كل غش وخداع . قل له يتدجج بالسلاح فإن سهامى تخترق كل درع . »

كان لشهيب فى أرض (الرطين) شهرة واسعة . وكان أصدقائى يخشون على من فتكه ، فدعوت إله الحرب أن يقف إلى جانبى . وقضيت شطراً من الليل أمتحن قوسى وأعجم سهامى ، واقيته فى الصباح التالى ، فتركته يرمى سهامه ، سهماً سهماً ، فإذا كل سهم يحيد عنى دون أن يمسنى بسوء . فلما استنفد ما فى جعبته الأولى ، ومد يده إلى الثانية ، أرسلت إلى نحره سهماً نافذ النصل ، نخر صريعاً على وجهه . فتقدمت وأجهزت عليه بفأسه التى أعدها لقتلى .

ثم ركعت على ركبتى ورفعت صلاتى إلى مُنث إله الحرب . وارتفع عويل الأسيويين وصياحهم ، وأقبل نشى بن آمو فعانقنى . . . ثم جمعت الأسلاب والغنائم ، وجاء رؤساء قبيلته فأبدوا خضوعهم ، ونادوا بى رئيساً عليهم . وبذلك اتسعت ضياعى ، وازدادت ممتلكاتى .

وكاد الرسل أن يطيروا سروراً بما شهدوا ، وما أشك فى أنهم

نقلوا أنباء هذه الحادثة إلى مصر ، ولم تزل تتناقلها الأفواه حتى بلغت المسامع الملكية ، فأتاحت لصديق يونس فرصة بأن يتقدم إلى الملك الجليل ، ويلتمس منه أن يصفح عنى ، وأن يردنى إلى الوطن ، لكى أرى البابين الكبيرين مرة أخرى ، وأمتع نظرى برؤيته ، ورؤية سيدتى الجليلة كريمة أمينى ، وزوج الإله الكريم سينوسرت ، قبل أن تدركنى المنية وأوارى فى تراب غريب .

* * *

لم ألبث بعد ذلك طويلا ، حتى تسلمت الأمر الملكى التالى :

« من سينوسرت بن رع ، ملك مصر العليا والسفلى ، مجدد الحياة ، هورس ، تحرسه الإلهتان ربتّا التاج ، واهب الحياة ، الخالد مدى الدهر .

« أمراً ملكياً إلى الوزير سنوحى ! أنظر ويحك ، هذا أمر الملك إليك ، لكى تبادر بتنفيذه . إنك غادرت أرض مصر ، وسعيت بقدميك من الدلتا إلى أرض الشام ، ولم تزل تنتقل من أرض إلى أرض ، فعلت هذا بوحى رأيك ومحض إرادتك. ماذا ارتكبت من الإثم ، حتى تلوذ بالفرار ؟ إنك لم تطعن ولم تلعن ، ولم تنطق بفاحشة ، ولم تتهم بوشاية أو نميمة ، ولم ترفع

صوتك فى مجلس الرؤساء بما يستدعى لومك ، و إنما هو الوهم الذى صور لك تلك الهجرة ، ودفعك إلى ذلك الفرار .

« إن الملكة الكريمة فى أوج سمائها لا تزال تزين القصر ، وترفل فى الصحة والسعادة . وتشاطرنى ملك البلاد . وأطفالها قد كبروا واتخذوا مكانهم من حجرة الملك ، والملكة والأمراء على استعداد لأن يجزلوا لك الهدايا ، و يغدقوا عليك الهبات . هلم ، فعد إلى مصر ، لكى ترى البلاط الذى نشأت فيه ، وتقبل التراب بين البابين الكبيرين ، وتخالط الحجاب والوزراء مرة أخرى .

« أما ترى أنك قد تقدمت بك السن ، وولى عنك الشباب ، وجدير بك أن تفكر فى اليوم الذى تستقبلك فيه الأرواح الكريمة ، وواجب أن تعد لهذا اليوم دفناً كريماً ، وحنُوطاً طاهراً . يومئذ يعد لك الكتان من نسج تايت (إلهة النسيج) والزيت من شجر الأرز . وتدفن فى حفل عظيم ، وقد وضع جسدك فى تابوت من الذهب ورأسه من اللازورد . وقد صيغ غطاء التابوت فى صورة السماء . ثم تحمل على الدراجة إلى مثواك ، تجرك الثيرة ؛ والمنشدون يرتلون الأناشيد أمامك ،

وعلى باب قبرك يرقصون رقصة الخلود ، ثم تذبح الذبائح ، وتقرب القرابين على مذبحك ؛ ولقبرك أعمدة من الرخام الأبيض ، قد أقيمت وسط المقابر الملكية . . . فعد إلى أرض الوطن ، ولا تسلم جسدك إلى أرض غريبة ، تواريك فيها أيد أسيوية . بعد أن تكفن فى غطاء من الأدم . فانهض إذن ويحك و بادر بالعودة إلينا . »

حمل إلى هذه الرسالة صديق صعب بنفسه ، وحمل إلى من يونس تحية ونصيحة بأن أبادر باطاعة أمر الملك . وما كنت فى حاجة لأن أستحث . إن قلبى كاد أن يشق صدرى و يطير فرحا .

ولكنى قبل أن أعد العدة للرحيل . بادرت بارسال أحد الرسل أمامى يحمل إلى السدة الملكية الكريمة خطاباً من هذا الخادم الخاطىء ، قلت فيه :

« إن خادم القصر سنوحى يبتهل إلى الآلهة جميعاً ، بأن تهب الحياة والسعادة للأنف الكريم . وأن تغمر الملك الجليل والإله الطيب بالهدايا والهبات . وبالدوام الذى لا آخر له ، والأبدية التى لا نهاية لها

« إن خشية مولاى قد نزلت كل قلب ، وملأت السهل والجبل ؛ وكل ما تشرق عليه الشمس ، خاضع لسطونك وبأسك . إنك أيها المولى الذى يعلم الغيب ، قد اطلعت على ما يجرى فى نفس هذا الخادم من الأمانى ، وما يتردد فى صدره من الرجاء . وقد عقد الخوف لسانه عن الطلب ، فإذا الإله الكريم يهب ويمنح ويجيب الرجاء الذى لم يجرؤ اللسان أن ينطق به .

« إنى يا مولاى برىء لم أرتكب إثماً . و إخلاصى وولائى تشهد بهما جميع هذه الشعوب والقبائل فى أرض الشام ، والأقطار المحيطة بها .

« وهذا الهرب ، الذى أقدمت عليه ، لم أدبره ولم أقدره . ولم يصدر عن رغبة ونية صادقة ، بل ولست أدرى أى قوة دفعتنى فأبعدتنى عن وطنى . فكنت كأنى فى حلم ؛ وكأنى رجل من الدلتا يحس نفسه فجأة فى أسوان ، أو رجل من النوبة يرى نفسه وسط مستنقعات الشمال . وأشهد أنى ما هربت عن معصية ؛ وأنى منذ غادرت مصر . ونزلت ديار الغربة ، ما تركت لحظة تمر إلا قضيتها فى الإشادة بذكرك والتسبيح بحمدك . وها أنذا

أسلم القيادة التى تقلدتها هنا بأمرك ، وأعود من ساعتى إلى مصر . . . »

ذلك ما كتبته فى خطابى ، وختمته بالدعوات الطيبة . ثم قضيت بضعة أيام فى إقليم « ياع » . ووليت أ كبر أبنائى شئون بلدى ، وقلدته رئاسة القبائل . وسلمته البساتين والرياض والمزارع والماشية ، وكل شجرة غرستها بيدى وتعهدتها مدى السنين .

ثم ودعت الأهل والأصدقاء ، ووليت وجهى نحو الجنوب ، وأخذت أجد السير ومعى حاشية ضخمة من البدو . فلم تمض أيام حتى وصلنا « مسالك هورس » على حافة المصب الشرقى للنيل . فتلقانا مدير الإقليم واحتفى بنا . . ثم بادر بارسال نبأ إلى العاصمة بقدومنا ، وقضينا بضعة عشر يوما فى مسالك هورس . ثم جاء مندوب من قبل جلالة الملك ومعه السفن ، تحمل الهدايا للحاشية التى صحبتنى إلى مصر . فتسلم كل منهم هديته وعاد أدراجه . وأقلتنى السفينة حتى رست بى على الشاطىء الممهد فى عاصمة أمينى ، المدينة الخالدة قاهرة القطرين .

فهل حق ما أشاهده أم وهم ؟ . . . بل حق . فهؤلاء رسل الملك قد أقبلوا عند الفجر ، ودعونى إلى الحضرة الملكية الكريمة .

سار معى منهم عشرة ، وسبقنا عشرة . و بعد لحظات رأيت التماثيل على البابين الكبيرين ، فركعت ووضعت جبينى على الرمل ، وخفقان قلبى يوشك أن يحطم صدرى . وجاء الحجاب فاقتادونى — وأنا أتعثر فى أذيالى — حتى بلغت البهو الكبير . ثم دفعونى دفعاً نحو الحجرة الملكية الخاصة . . وهنالك رأيت سينوسرت فوق عرشه العظيم ، وسط المحراب الذهبى . فخررت بين يديه ساجداً . ولم أستطع من شدة التأثر أن أنهض ؛ كأنى رجل قد غاب عنه رشده . فتلطف جلالته . وأمر الحاجب بأن ينهضنى ؛ ثم أخذ يغمرنى بعطفه ولطفه ، ويخاطبنى بأرق لفظ وأعذبه ، فلا أحير جواباً من الدهشة . أجل كان سكوتى الآن دهشة لا عجزاً عن الكلام . فإنى رأيت أمامى سينو غير الذى كنت أعرفه . أبصرت أمامى الرحمة والحب والعطف ممثلة فى إنسان جالس على عرش مصر الخالد الأبدى .

قال جلالته : « ويحك يا سنوحى ! ها نحن ننتظر أوبتك هذه السنين الطوال ، ثم تقف بين أيدينا أخيراً فما تحير كلاماً »

ثم ضحك وقال : « لا بأس عليك . وأكبر ظنى أن هذا الطواف والضرب فى مناكب الأرض وسط الشعوب الغريبة ،

قد أنساك الكلام المصرى . غير أننا لم نرد أن تطول غربتك حتى توارى تربة غير تربتك ، وتنام فى ثرى غير ثرى مصر . »

وعاد إلى جأشى تلك اللحظة . فقلت : « هيهات يا مولاى لمثلى أن ينسى لسانه ، بل لقد نشرته فى ديار الغربة . حيث تعيش شعوب خاضعة لسلطانك ، مخلصة لعرشك . وإنما عقد لسانى هذا المقام الكريم . وهذا العطف الالهى السامى . »

ولم يمض وقت قليل حتى دخلت الملكة ومعها الأمراء. فقال الاله الطيب مداعباً : « أنظروا هذا سنوحى ، غادرنا مصرياً ، وعاد إلينا أسيوياً ! وفارقنا مدنياً ، وارتد إلينا بدوياً » فضحكت الملكة وضحك معها الأمراء ... ونظروا إلى متظاهرين بأنهم لا يصدقون ما تراه أعينهم . فأكد لهم جلالته أنى سنوحى من غير شك . وعند ذلك وقف الأمراء صفاً ، وفى أيديهم آلات موسيقية . وأخذوا ينشدون نشيداً جميلا ، ما شككت فى أنه من تأليف صديقى يونس . وأنه أعد لهذا الموقف . . . وكانت عباراته كما يلى :

« حييت يارب الجمال والجلال، ياذا العمر الطويل الأبدى
شملتك الآلهة بالرعاية ، وغمرتك بالسعادة !

إن تاج مصر العليا ينحدر من الجنوب ،
وتاج مصر السفلى ، يصعد من الشمال ،
لكى يلتقيا على مفرقك ، فيسعدا بعدلك وسلطانك
أنت الذى يلمع الثعبان المقدس على جبينك
إن رع الإله الأكبر مسرور بك
لأنك أرضيته وشرحت صدره . يا رب القطرين .
مر أيها المولى بأن يرفع الضر عمن مسه ضرك !
وأن ينزع السهم ممن أصابه سهمك !
وانفخ فيه من روحك ، حتى تعود إليه الحياة
هب لنا فى عيدنا هذا روح هذا الأسيوى الشرير !
أجل الأسيوى الذى ولد فى مصر !
إنه ما فر إلا حشية من بأسك
وما غادر الأرض إلا هربا من سطوتك . .
فأعد إليه المجد والحياة . .
يزل عنه الخوف ؛ ويعد إليه الأمن . »

وعلى أثر هذا النشيد المدهش . قال الجالس على العرش :
« إنه لن يخاف بعد اليوم شرا . ولن يناله مكروه . وسيرقى

أسمى المراتب بين الحجاب والوزراء . والآن انطلق يا سنوحى عدواً إلى البيت الذى أعد لك . وعد إلينا نظيفاً نقياً »

وأنا فى غنى عن أن أسر إلى القارى أنى كنت فى حاجة شديدة إلى إطاعة هذا الأمر الملكى الكريم . . .

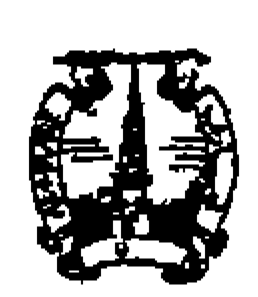
***

وهكذا يا أبنائى على مدى السنين والحقب ، عاد جدكم سنوحى من غربته . وهذه قصة حياته بين أيديكم . فاذا ذكرتموه فى الزمن المبهم البعيد . فلا تنسوه من صلوات زكية ترفعونها باسمه إلى الآلهة . . .

[illegible]

د. زكى محمد مجاهد

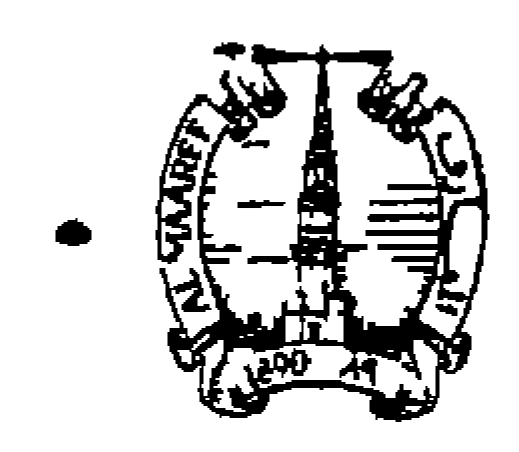
[illegible]



مؤلفات حديثة :

ص			
٢٥	على هامش السيرة (الجزء الثالث)	بقلم	الدكتور طه حسين بك
٢٥	عبقرية الامام	»	الأستاذ عباس محمود العقاد
٢٥	الصديقة بنت الصديق	»	» » » »
٢٥	رجال ونساء (الجزء الثانى)	»	» أحمد الصاوى محمد
٢٥	الخطايا السبع	»	» على أدهم
٢٠	يونس الخضراء	»	لجنة دائرة المعارف الاسلامية
٥٠	القاهرة (الجزء الأول)	»	الأستاذ فؤاد فرج
٨٥	بلادى	»	سمو الأميرة شيوكار

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

تأسست فى القاهرة سنة ١٨٩٠

ورائدها ترقية الكتاب العربى

وتوسيع دائرة نشره فى مختلف البلاد .

المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على

وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس